صورة الثائر والمتمرد في كتب التراث الشعبي[١]

"عثمان بن الحبلة وسيرة الظاهر بيبرس أنموذجا"

دكتور/أحمد عبد السلام ناصف

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

كلية الآداب– جامعة طنطا

رغم كثرة الدراسات التي تناولت بعض الثورات وحركات التمرد من الناحية التاريخية البحتة الا أن الحاجة لازالت ماسة إلى رسم صورة الثوار والمتمردين على السلطات وذلك من خلال إحدى كتب التراث الشعبي ألا وهي سيرة الظاهر بيبرس ، حيث أن هذه السير مرآة لأحلام هولاء المتمردين. فالحقيقة التاريخية المؤكدة أن هولاء لهم دور في الحياة السياسية في العصريين الأيوبي والمملوكي ، وكان هذا الدور يقل ويزداد حسب قوة السلطات الحاكمة وحسب الظروف التي تحرك القوى الثائرة .

سمي أصحاب الحركات الشعبية في مصر الاسلامية بالأحداث[٢] أو الفتيان[٣] أو الصبيان وإنما تزعمها من أطلق عليهم المؤرخون اسم الحرافيش[٤] والزعار[٥] والعياق[٦] والشطار[٧] الذي ازدهر نشاطهم منذ أواخر العصر الأيوبي وإبان العصرين المملوكي والعثمانى ، فوصفوا بأنهم جماعات شعبية مسلحة أطلق عليهم الحرافيش والزعار ، وقد وصفوا بما وصف العيارون[٨] والشطار والفتيان بأنهم من الرعاع أو الدهماء أو الحثالة العامية أو الأوباش أو الغوغاء أو السفلة أو أرذل السوقة ، وأنهم ليسوا متلصصة ونهابة وحرامية ومناسر[٩] وعياقا ودعارا ومن طلبة الشر والفساد إلى غير ذلك من أسماء وصفات ونعوت[١٠] .

فكان ينظر لهؤلاء بعين الاحتقار والسخرية وأنهم ليس لهم حق في ثروات البلاد، ليس ذلك فحسب بل كان مجرد ذكر أسمائهم يدعو إلى الاشمئزاز والسخرية نتيجة للنظرة الطبقية التي كانت سائدة في تلك العصور على أنهم غوغاء ، وهم مصدر السلب والنهب والفوضى في البلاد وحتى المؤرخون أعرضوا عن ذكرهم رغم ما لهذه الفئة من تأثير على شتى النواحي[١١] .

ففي بداية الدولة الأيوبية ظهرت منظمات الحرافيش مكونة من الحرفيين في المدن ، حيث قاموا بأعمال انتقامية ضد موظفي الدولة وكبار التجار الموالين لهم، فضلاً عن دورهم في مساعدة الفقراء ، ولم يتقاعسوا عن الجهاد ضد الصليبيين[١٢]، حيث شكلوا جماعات من المتطوعة وأبدعوا في فنون البطولة في مواجهة الغزاة ، ويروي المؤرخون أمثلة حية من المقاومة الشعبية التي أبداها هؤلاء الحرافيش المصريون، وكيف أنهم كانوا يتحايلون في اختطاف العدو بكافة الطرق التي تثير الدهشة والإعجاب[١٣]، ويرجع ذلك لسببين أحدهما بدافع الغيرة على دينهم والجهاد ، والثاني الطمع في النهب وسلب جيوش الأعداء ، ولذلك أطلق عليهم الطماعة والنهابة والسراق ، وقد كانوا وقت السلم يشكلون خطرا على السلطة التي لم تدخر جهدا في التنكيل بهم والبطش بزعمائهم[١٤]، وأصبحوا عاملاً بارزاً في التوازن السياسي، فقد كانوا عبارة عن فرق قتال شعبية مجاهدة في سبيل العقيدة اشتهرت بالقوة والجسارة والمروءة وأسهموا بدور فعال في الحروب ضد الصليبيين، ولكن تلاشى دورهم السياسي في ظل حكم المماليك الإقطاعي [١٥] .

ونتيجة للصراعات والنزاعات اتجه الزعر والحرافيش إلى التسول والشحاذة بعد أن كانوا فرقاً شعبية لها كيانها ودورها في الجهاد، وكان التسول عملهم النظامي وعاشوا على هبات وأعطيات السلاطين والأمراء ، فهم بالمعنى السياسي والاجتماعي فئة مطحونة جمعت بين الشحاذة والصعلكة والدروشة والفتوة للحصول على الرزق [١٦] .

ونتيجة النظام الطبقي الإقطاعي السائد في تلك العصور لم يكن لهم وزن في الحياة العسكرية ولا المشاركة السياسية في الدولة، فكان ينظر إليهم نظرة متدنية ، ومن ثم تحولوا إلى صفوف البطالة والتسول في الخوانق[١٧] والزوايا[١٨] والأربطة[١٩] والمساجد وغيرهما ، ونتيجة لظروفهم الاقتصادية الصعبة انضم الحرافيش إلى فرق الدراويش ليضمنوا لهم لقمة العيش اليومية ، حيث كان لهؤلاء الدراويش مقدرات يومية تخصصها لهم الدولة [٢٠] .

وفي ذات المنحى انتقل الزعر والحرافيش أثناء الحروب الأهلية بين المماليك إلى مرحلة جديدة حيث أصبحوا ليس مجرد يد طوعى في يد المماليك أثناء الاستعانة بهم مقابل الأموال والسماح لهم بنهب بيوت الأمراء المهزومين أو المغضوب عليهم تحت رعاية المماليك للقضاء على منافسيهم ، وقد شكل الزعر فرق مناهضة لاستبداد المماليك الذي زاد فسادهم

على عامة الشعب المطحون ، وأصبح الزعر والعياق مرتبطين بظهور الأزمات والفتن حيث يظهرون فجأة ويختفون فجأة [٢١] .

كما شهدت مصر صور متعددة من النضال الشعبي غير المنظم كرد فعل للفساد السياسي والأزمات الاقتصادية ، وكان ذلك أشبه بالمقاومة الشعبية ولكن بصورة غوغائية غير منظمة ولكن ليست كسلوك اجرامي كما صورها بعض المؤرخين الذين أطلقوا على أصحاب الحركات الشعبية اسم الحرافيش والزعار[٢٢] .

لقد تناولت بعض المصادر التاريخية هبات الزعر والحرافيش من منظور طبقي ضيق باعتبارهم أوباشاً غوغاء لا وزن لهم ، بل اعتبروها مجرد أعمال سلب ونهب وترويع للآمنين من مختلف الطبقات وإزعاج السلطات الحاكمة ، فقد كانت انتفاضة الحرافيش أعمالاً غوغائية مضطربة تخيف السلطات لكنها كانت في بعض الأحيان لم تغير من الأمر شيئاً ، بل كثيراً ما كان المماليك يستغلونها محرضين لها لتحقيق أهدافهم الشخصية[٢٣] .

ويبدو أن هذه الهبات لم تصل إلى حد الثورات المنظمة ذات الأهداف المحددة ، ويرجع ذلك إلى أنه لم يكن في أذهانهم فكر سياسي محدد ، ويمكن إرجاع هذه الثورات أو الهبات الشعبية إلى المظالم المختلفة التي اقترن بها حكم المماليك ، ويكمن السبب الحقيقي فى الوضع الاجتماعي الذي انحدرت إليه الطبقات الدنيا في ظل المجتمع الإقطاعي الذي تضمن كل أنواع العسف والقهر لهذه الطبقات، وترجع الأسباب المباشرة إلى كثرة الغلاء والقحط الذي كثيرا ما تتعرض له هذه الطبقات الفقيرة الكادحة[٢٤] .

ومن الأسباب المباشرة لثورات العياق والشطار تعدي المماليك علي عامة الشعب وإعداد الحملات واغتصاب الطواحين مما يسبب الغلاء وكثرة تغيير العملة والتلاعب بمعاييرها وأوزانها وأسعارها، الأمر الذى حقق النفع للحاكم والضرر الكبير لعامة الشعب، كما كان كثرة فرض المكوس[٢٥] والضرائب بسبب وبدون سبب خاصة في ظل الأزمات الاقتصادية واحداً من أهم أسباب ثوراتهم، حتى أن ثوراتهم كانت تعرف بثورات الجياع [٢٦].

ومن أسباب ثورتهم أيضا أنها رد فعل عن حرمانهم من المشاركة في الحياة السياسية واتخاذ القرار ، وعدم وجود مصادر رزق ثابتة التى تضمن لهم طوق النجاة من الأزمات الاقتصادية والغلاء ، فلم تكن هذه الثورات مجرد أفعال غوغائية حمقاء فوضوية ، بل كانت

أعمال عنف وإن لم تصل إلى حد الثورة المنظمة بالمعنى المعروف ، بل كانت تعكس قيود النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والتمييز الطبقي السائد في الدولة، فقد كان ارتفاع الأسعار وقلة الخبز سبباً كافياً لقيام عصابات الزعر بالثورات العلنية ضد الدولة[٢٧] .

أما بالنسبة لأخلاق الشطار والعيار والحرافيش فقد اتصفوا بالصبر على الشهوات وتحمل الأذى كالضرب بالسوط وتقطيع الأعضاء والصلب وسمل العينين وقطع الأيادي والأرجل ، كما كانوا أمناء على أسرار أصدقائهم محافظين على المحارم ولا يتعرضون للنسوة ويقدسون شرف الكلمة ، فضلا عن أنهم كانوا يتجنبون الكذب ، ولا شك أن هذه الصفات والأخلاق تدل على الشجاعة والقوة والأمانة[٢٨].

إن القضية الأم أو المحورية في ملحمة الظاهر بيبرس هو التحرير في جانبه الثوري الخلاق ، بكل ما تعنيه الثورية من رغبة في التغيير إلى الأفضل ، فكان على الملحمة أن تعيد بناء الواقع الاجتماعي والسياسي معا لتحقيق العدل الاجتماعي وكفالة العدل السياسي عبر الثائرين والمتمردين ، وبذلك يتكامل بناء المجتمع المثالي المنشود كما يتوسمه الوجدان الشعبي ويسعى إلى تحقيقه في هذه الملحمة، ومن ثم فلم يكن عبثاً أن تسعى السيرة لمقاومة الفساد الداخلي قبل أن تشرع في التحرير ومقاومة الغزو الأجنبي[٢٩]، في ضوء هذه الرؤية الجمعية المشروعة شرعت الملحمة أو السيرة تقيم بناءها الفني والموضوعي، وترسم من خلال أحداثها ووقائعها الطريق الإيجابي للثورة وتحقيق المجتمع المثالي الذي لا قهر فيه ولا ظلم[٣٠]، وهذه هي وظيفة تلك الملحمة ذلك الفن الذي ينشأ صيحة قوية من الشعب على الظلم والطغيان ، ففيها فر الشعب من حاضره البغيض ورسم صورة لمنقذه من الطغيان والظلم وأفات المجتمع ، فترسم السيرة شخصية الثائر المتمرد في الوجدان الشعبي المصري في هيئة عثمان بن الحبلة فالأسطى عثمان بن الحبلة من الشخصيات غير التاريخية في الملحمة قاهري من أبناء الحسينية ، أي ابن بلد ومن أصحاب الحرف والمهن البسيطة [٣١].

ومن نافلة القول أن نكرر أن ميدان الجهاد في الداخل كان أصعب بكثير منه في الخارج ، فكان صورة الثائر المتمثل في عثمان ابن الحبلة يحتاج إلى مواصفات خاصة يتصف بها، الأمر الذي يؤكد أن انتخاب الثائر المتمرد لم يتم عبثاً وإنما وفق القضية المحورية الأم . ولما كانت قضية " الفساد الداخلي " هي جوهر الجانب الاجتماعي في

ملحمة الظاهر بيبرس فلا يوجد أنسب حينئذ من اختيار الثائر والمتمرد (عثمان بن الحبلة) من بين أبناء المجتمع نفسه، نظرا لمعرفته الوثيقة بمواطن الفساد الذي يبغى صلاحه وتطهيره [٣٢].

وتشرع السيرة فى بلورة شخصية ابن الحبلة فنياً، باعتباره شخصية رامزة للمجتمع المصري وابن البلد على وجه الخصوص، الذي اتخذ من اللصوصية وقطع الطريق وسيلة للتعبير عن تمرده السياسي والاجتماعي، ويكون الصراع حينئذ صراعاً رامزاً بين السلطة الغاشمة والشعب المتمرد [٣٣]. فابن الحبلة " ابن البلد " الشخصية الرامزة إلى المجتمع المصري والراغبة في تحريره وما ينطوى عليه من ضروب المقاومة والقدرة على التمرد والتحرر[٣٤]، وقد عبر عن تمرده بعدة وسائل وبعدة مراحل ، أولها المقاومة السلبية ، فاتخذ من الشطارة والعياقة وسيلة لإعلان تمرده ، بل وهو كبير عياق مصر له من المشايد ثمانون[٣٥] يجتمعون به في ملعب أحمد بن طولون الذي يطلق عليه مجمع العياق .. [٣٦] وأ هل مصر يوقرونه لقوته وجبروته ، ولا يرهبون أحداً قدر ما يرهبونه وإذا سمع أحد باسمه " وقفت اللقمة في زوره " مهما كانت مكانته [٣٧] ، فهو أبو عياق مصر بغير منازع ، وهو الذي قتل الولاة وطرد الوزراء دون أن يحفل بواحد منهم ولا يعمل حساباً لجندي وغير جندي ليبلغ من خوف قضاة مصر أن تجعل الحق باطلاً والباطل حقاً من أجله[٣٨] . حتى لصوص مصر لا يخافون الله مثلما يخافون من عثمان حسبما وصفت السيرة [٣٩] . وكذلك " سواس الخيل " وهي طبقة شعبية لا يستهان بها وكان كبيرهم لا يناديه إلا بعبارة " يا جدي " [٤٠] ، ويتهيب منه الناس ولا أحد يقدر على إدلال بيته لأحد مهما كان [٤١] ، والجدير بالإشارة أن بيته مشهور بغزية الحبلة وكذلك الحارة اسمها حارة غزية نسبة إلى أمها [٤٢] . وكان عثمان يرى أن المماليك هم اللصوص وليس الشعب [٤٣].

ويتفنن القصاص في رسم صورة عثمان بن الحبلة، فإذا هو شاب أحمر، حلو المنظر، لونه كقالب السكر ، جل سبحان من خلق وصور، طويل القامة، غليظ المنظر ، عليه ملابس فاخرة ، وبيده رزة مكتوب عليها " الأجر على الله " [٤٤]. وكانت له لحية طويلة، وشارب كبير يخوف به الناس، وقد بذل بيبرس المستحيل في سبيل إخضاع عثمان

له، ولكن عثمان يرفض أن يستجيب له، فهو لا يخدم أبداً ولا عمره خدم إلا عند السيدة نفيسة كريمة الدارين [٤٥].

وما يتسم به عثمان بن الحبلة أنه دائما يتكلم بالكناية ، وبخاصة مع الملك الصالح الذي كان يلجأ إلى مخاطبته بلغة الدراويش الصوفية[٤٦] في كثير من الأحيان، وهو يردد دائ ماً لأغانٍ ومواويل مصرية ذات مغزى موضوعي، وهو إلى جانب ذلك يستعلى بالفكاهة والسخر فوق الواقع المرير أحياناً ، دائم النكتة يرسلها في أحلك اللحظات ودائم السخرية ، ويتضح ذلك من أقواله وأفعاله وحيله[٤٧] . هذا فضلاً عما اتصف به من براعة وحذق ودهاء، فأظهر القصاص كفاءتة في التحايل مع القدرة على كشف الدسائس والمؤامرات مستعيناً على ذلك بولايته وعلمه الباطن[٤٨].

ويبدأ الصراع بين بيبرس ومماليكه من ناحية وبين ابن الحبلة ومشاديده من ناحية أخرى حاداً منذ أول صدام تم بينهما، فالعلاقة بين بيبرس وابن الحبلة بدأت عندما أراد بيبرس سائساً له ، وكان أصحاب السلطة والشعب يخافون عثمان حيث يعجز الجميع عن مقاومته أو الوقوف في طريقه، فكانت الوصية الأهم التي أجمع المحيطون ببيبرس على تقديمها له حين بدأ نجمه السياسي في الصعود أن يحذر الاصطدام مع عثمان بن الحبلة، وإلا انخرقت هيبته في مصر كلها وهيبة السلطنة معه ، الأمر الذي أثار حفيظة بيبرس المتمردة [٤٩] ، لقد كانت شرور عثمان وحدها في نظر السلطة الحاكمة هي أخطر الشرور عليهم، فنرى أن الأغا شاهين وزير الملك الصالح قد حذر بيبرس من أولاد مصر وعلى رأسهم عثمان بن الحبلة، بقوله " إياك ثم إياك أن تستخدم رجلا يقال له عثمان بن الحبلة ، لأنه رجل لا يصطلى له بنار في أرض مصر، وقد أذل أهلها وقد بلاهم بالقهر، وما دأبه إلا خطف العمائم ، ولا يبالي من الأكابر ولا من الأصاغر ، وقد جائتني فيه شكايات وعيب مرار عديدة وأنا أعين له الأمراء والجند وأطلب منهم أن يقبضوا عليه ويحضروه إلى ، فما يقدر عليه أحد ، وقتل من الأمراء سبعة ولاة ولا يبالي ، وقد قطعت عليه سبع فرمانات بختم السلطان أن يقتل موضع القبض عليه ، فلم يتمكن أحد من ذلك ، وبعدها ركبت أنا ورجالى فطردوني إلى الديوان، وهو كأنه عفريت من عفاريت السيد سليمان [٥٠] ، ويصفه بأنه من جبابرة الزمان [٥١] ، ويقول فيه أيضاً" إنه جبار عنيد، شيطان مريد ، يقتل النفس المحرمة ،

ويهين الحرمة ، ويشرب الخمر ، ويؤذي الناس بالمكر ، وأنه ليس له دين ، ولا اعتقاد في يقين"، وتكرر قوله أنا لا أقدر على عثمان بن الحبلة[٥٢] ويثير هذا التحذير حفيظة بيبرس المتمردة ويصبح ابن الحبلة لغزاً في نظر بيبرس ، ويوقن أن وجوده على رأس السلطة رهين بالقضاء أو السيطرة عليه [٥٣] ، إلا أن بيبرس لم يأبه لها ولم يعجبه إلا عثمان فضاق يبحث عنه وكأنما لذ له أن يغلب هذا الجبار، ورجل كعثمان فيه هذه الصفات صعب أن يخضع لغيره ، خاصة من الطبقة العسكرية ، ولذلك كانت قصة بحث بيبرس عنه واخضاعه له من أروع القصص وأحفلها بالمغامرات [٥٤] والتى انتهت بأن بيبرس قد توصل لابن الحبلة وأخذه بيبرس معه إلى بيته بالود، وقد بات كلاهما يضمر الشر للآخر وانتوى الخلاص منه فقال بيبرس في سره حسب السيرة –إن استطاع خدمتي والا أقتله وأريح الناس من شره ، أما عن ضمير عثمان فإن مراده أن يخدمه عنده ذلك اليوم ولما يدخل الليل يقتله ويأخذ ما عنده ويروح إلى حال سبيله[٥٥] ، كما ظل الخوف مسيطراً في البداية على الجميع الرئيس والمرؤوس ، وكان كل من يعلم برغبة بيبرس في استخدام عثمان حتى يفزع إشفاقا عليه ويبادر بتقديم النصح إليه إذا شاء أن يفوز بحياته لأن هذا الولد جبار وشيطان مريد بتعبير السيرة [٥٦].

وكان رأي الملك الصالح في عثمان أن ظلامه ما فيه نور أبدا وانه لا يبالي أحدا ، وكان يحذر القاضي صلاح الدين منه[٥٧] .وعندما تاب الله عليه قال الملك الصالح للوزير الأغا شاهين : " سبحان مسبب الأسباب فإن الرجل سعى في فساد أعقبه الله صلاحاً وارشاداً رغما على كيد الأعادي والحساد وأن الله تاب عليه وعلى من معه وأناس أشقاهم الله فانهم يرومون على شقاهم" [٥٨].

وكان عثمان لا يهاب أحداً ويأخذ بثأره دوماً فعندما ظلمه الوزير الأغا شاهين وكرر عليه إحدى العقوبات مرتين عمل عثمان عليه حيلة وأراد ضربه بالنعال لولا تدخل بيبرس وتمالك عثمان واستحلفه ألا يفعل شيئاً، ومن شدة خوف الوزير من عثمان أن يضربه طلب من بيبرس أن يصالحه على عثمان ويعفو عنه، فعفا عنه مقابل فداء نفسه بعشرة خرفان للناس [٥٩].

وفي ضوء هذا النص الذي يحكي رأي السلطة في عثمان، إنما يؤكد أن عثمان بتمرده على المجتمع كان يعكس الفساد الذي استشرى في هذا المجتمع، وبتمرده على السلطة إنما يرمز إلى تلك المقاومة الشعبية " السلبية " التي ترفض الخضوع لهؤلاء الأجناد الذين حكموا باسم الدين ، فعاثوا فساداً في عرض البلاد وطولها [٦٠] ، حيث كان عثمان يرى بيبرس مثله مثل باقي أفراد السلطة الحاكمة مثل العقارب خاين العهود ويصفه بالنمرود[٦١] ، وكل من فعل معك جميلاً لا تجازيه إلا بالشر والويل [٦٢] .

كما كشفت السيرة عن مدى تعاطف العامة مع عثمان– البطل الشعبي– ضد هذا المملوك الجديد بيبرس الذي كاد أن يدفع حياته مراراً ثمناً للوصول إلى عثمان الذي رفض الخدمة عنده ، ولأنه متمرد وثائر رفض أن يخضع لهذا الجندي الدخيل ، معبراً بذلك عن الرفض العام من أبناء مصر لهؤلاء الأجناد[٦٣].

ومن مظاهر تمرد عثمان على السلطة رفضه الخضوع أو الخدمة عندهم وكذلك مشاديده ، عندما عرف أن عقيرب أحد مشاديده يعمل في خدمة الأمير بيبرس ، فسبه وقال له " أنت لك زمان في هذه الصنعة يا كلب أنا كبيرك ولكن عمري لم أستعمل الطواجين الخوانك ولا غيرهم ولا أعرف الفساد أنت يا عقيرب تقول للجندي هات لك طاجن خوانك لأجل أن أكون معيرة بين الناس بك ويتكلموا بحقي بالأدناس " وضربه بالرزة ثلاث ضربات[٦٤] .

وظل بيبرس يبحث عن عثمان حتى توصل إلى بيته بالحيلة على أحد فرانين الحارة ، ورحبت به غزية الحبلة أم عثمان ، وأصرت على أن يأكل معها ، فأطلعته إلى أعلى الدار في قاعة بها كثير من العمائم ومقل وجبب ملونات وشيلان وبرانص وطقوم وغير ذلك ، فاستغرب بيبرس وقال لها إني أرى بيتك من تحت كبيوت السادات والقادات ، ومن فوق كبيوت دلالين الأسواق ، فقالت له هذه الملابس والعمائم التي يخطفها ابني عثمان من الجميع من حكام وأمراء ولا يخاف منه ، وهذه هي عادته ولا يخاف أحداً [٦٥] .

كما قصت عليه مناماً أن الست نفيسة تقول لها افرحى يا حبلة لأن ابنك عثمان سيخدم الملك السعيد فإن سعد ولدك أقبل وذهب عنه الشقاء وأتت له الهداية والولاية والرعاية من الله جل جلاله ، ورأت أن بيبرس في يمينها وعثمان في يدها الشمال ، وسألت الحبلة فى

منامها من هذا يا سيدتي ، فردت عليها هذا بيبرس العجمي وسوف يكون ملكا وسلطانا وسينصر دين النبي المختار(صلعم)، وولدك سيكون له شأن أخر على يده، ودليه على مكانه، ففاقت من منامها على وجود بيبرس في دارها فعرفت أنه بيبرس ، فدلته على مكان عثمان ، وأوصته باللين معه والرفق به [٦٦].

وحسب السيرة أن بيبرس قد ذهب حيث وصفت له أم غازية الحبلة إلى ملاعب ابن طولون حيث (عياق مصر)، ويدخل مغارتهم ، ويستمع إلى حديث عثمان الذي طلب فيه من العياق قتل المملوك الجديد بيبرس، وما إن يقوم أحدهم ليقتل بيبرس حتى دخل بيبرس وسط هؤلاء الرجال الذين كادوا أن يفتكوا به، لكن بيبرس خاطب كبيرهم بقوة وشجاعة، لذا أدرك عثمان أن قوته قد انحدرت أمام قوة بيبرس، وأن بيبرس قام بفعل لم يفعله أحد من قبل، وكان عثمان في هذا الموقف ما بين قاب قوسين، أو أدنى إما أن يستجيب له وتضيع هيبته أمام العياق ، ولما أن يقتل بيبرس أخذًا بثأره، وفي نفس الوقت لم يستطع محاربة بيبرس ، فيوازن عثمان بين تلك القوتين المتصارعتين (السلطة ، والشعب)، فإذا كان عثمان يمثل الشعب فبيبرس يمثل السلطة، ولذا كان الوزراء هم أفراد السلطة فالعياق هم أفراد الشعب الذين يعلنون العصيان على السلطة ، فماذا يفعل كبير العياق "عثمان" أمام الحاكم وكل منهما يرى نفسه سلطانا وحاكما ، فإذا كان هناك سلطة رسمية متمثلة في بيبرس ، فإن هناك سلطة شعبية رأسها عثمان بن الحبلة ، فلابد من تصارع القوى حتى تؤول الغلبة في النهاية للسلطة الحاكمة وتدخل قوى الشعب الثائر في زمرة الحكم السياسي[٦٧].

كيفما كان الأمر فحسب السيرة كاد بيبرس أن يفقد حياته وطموحه السياسي أمام حيل ابن الحبلة وملاعيبه لولا أن تدخلت القوى الروحية في مصر لتحقيق الصلح بين الجانبين ، نظرا لاستشرافها الغيب ، ويقينها بأن سعادة عثمان بن الحبلة مقرونة بسعادة بيبرس، على حد تعبير السيرة (الشعب+الحاكم) لما جمعت بينهما بالصلح وقامت بالمؤاخاة في عهد الله بين الطرفين[٦٨] ، وجعلت توبة عثمان بن الحبلة على يد بيبرس، ولعل من أعظم المشاهد الملحمية جلالاً في هذه السيرة هذا المشهد الذي يفرغ فيه ابن الحبلة إلى ضريح السيدة نفيسة يستنصرها على الظلم والمظلومين ويشكو إليها حاله ويتوسل إليها إلا أنها تأمره بالاستسلام لهذا الجندي الجبار الذي يريد أن يحكم عليه بالخدمة عنده ، ولكن

السيدة نفيسة تهدىء من روعه وتطمئنه وتؤكد له أن هذا الجندي ليس مثل الأجناد الذين عرفتهم مصر، بل إن على يده سوف يمحى وعده بالخدمة والعبودية الى الأبد ويقبل سعده في الخلاص والتحرير على يديه، وتطلب إلى عثمان أن يكون خادم بيبرس المطيع على طول المدى، كما تطلب من بيبرس أن يطيع أوامر عثمان فإنه صحيح النظر، وحينئذ يستسلم عثمان وتؤاخي بينهما وتأخذ عليهما عهد الله حتى لا يخون أحدهما الآخر بعد الآن، الأمر الذي يمكن تفسيره بإمكانية الإصلاح والقضاء على الشر إذا توافرت النية المخلصة (٦٩).

وبذلك يتحقق منام ورؤيا غزية الحبلة، وسعدت كثيراً بدخول الاثنان عليها وتلقتهم بالأحضان، وقال لها عثمان افرحي يا حبلة أنا بقيت شاباً تائباً نائباً لا لي ولا علي وخدمت بيبرس على مقام السيدة نفيسة وبقيت أخوه (٧٠).

فإذا ما تآلفت القلوب وصفت النيات دهش الجميع ، فوافق عثمان أن يعمل عند بيبرس سائساً للخيل، وهو رمز فني رائع ، تؤيده الأحداث، ولم يكن عبثا كذلك أن تكون وظيفة عثمان عند بيبرس أن يكون سائساً، فأخذ عثمان حينئذ يسوس الفرس والفارس معاً ويمسك في يده بزمام الحصان وبيبرس معاً يجوب بهما شوارع مصر وحاراتها، الطريق المزدحم ليس بالناس وإنما طريق الإصلاح المزدحم بالمشاكل والعقبات وأنماط الشر والفساد في الداخل فيدله عليها والقضاء عليها ليحل محلها الإصلاح والعدل ومن ثم تحقيق المجتمع الداخلي المنشود في الوجدان الشعبي " مجتمع العدل والإنصاف " (٧١).

ويكون ذلك التآخي بينهما مصدر دهشة أهل مصر ويدهش الولاة والوزراء والقواد لأمر هذا الصلح العجيب بين واحد من طبقتهم الارستقراطية وبين ابن الحبلة رأس العامة ، واثقين أن بيبرس لن يسلم منه ومن جماعته من الشطار والزعار الذين لا أمان لهم .. ولكن تتسلسل الحوا دث التي تخيب ظنهم وظن بيبرس أيضاً حين يكتشف أنهم هم اللصوص الحقيقيون ، الأمر الذي دفع بيبرس بمزيد من التلاحم مع عثمان ، فالتقيا على هدف واحد وروح ثائرة وعدو واحد هو أس البلاء الحقيقي للسلطان والشعب (٧٢).

وحسب السيرة فقد قام بيبرس بالصلح بين عثمان والوزير الأغا شاهين، واستصدر عفواً عاماً عن عثمان وألغى الفرمانات السبع التي صدرت لقتل عثمان، بل إن عثمان قال

للوزير يا أبا فرمة قبل كل حساب قطّع الفرمانات السبعة ودع ما كنا فيه من العناد، فأمر الوزير بإحضارهم فأخذهم عثمان وألصقهم في داير المكان، وقال للوزير أعلم أننى ما عملت هذه الأعمال إلا أنك إذا رأيتهم تترحم على أصحابهم وتخشى سطوة من قتلهم، فتبسم الوزير وأعطاه ألف دينار [٧٣] ،أما الملك الصالح ولي الله المجذوب كما وصفته السيرة [٧٤]، فجعلت منه الملحمة ملكاً درويشاً سلبياً عاجزاً عن الإصلاح ومقاومة الفساد الداخلي، فقد سعد كثيراً بهذه المصالحة التي تمت بينهم، أنه رأى في هذا التآخي رمزاً بارزاً للتعاون والتآخي بين السلطة والشعب، ويعلم جيداً الدور الذي سيلعبه بيبرس مع عثمان في سبيل تأسيس مجتمع مثالي منشود خال من الفساد والانحلال وبارك هذا التآخي الملحمي الخلاق[٧٥] ، ولهذا لا غرو أن نري الملك الصالح ينصح بيبرس ألا يخالف أمراً بعد اليوم لعثمان بن الحبلة، وغيره ، بل إن السيدة نفيسة تؤكد ذلك لبيبرس مراراً، أي إنه يطاوع عثمان، فإن الله له في خلقه سر خفى لا يعلمه إلا هو [٧٦] .

ولكن هذا غير صحيح، فعثمان بن الحبلة لا يخاف أحداً ، ولا من الملك الصالح ، فتكرر أكثر من مرة ، قوله أنا أقتل الملك الصالح بالرزة ولا أبالي وأسقيتك كأس العذاب، علاوة على مخاطبته له دائما بأبو جوطة [٧٧]، وتكرار وصفه بأنه رجل تيس[٧٨].

وبعد تصالح عثمان مع بيبرس يتصالح مع نفسه ومع مجتمعه يرفض كل ما هو بالعنوة ويثبت للجميع ذلك مرارا وتكرارا[٧٩] . وبعد ذلك يجمع عثمان مشاديده الثمانين ويحكى لهم قصة توبته وأنه لم يعد بحاجة إلى العياقة، وأنهم يخطفون على قدر ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ، وعندما يمنعه بيبرس من ذلك يرد عليه أن العياقة والشطارة مهنة يأكلون منها وليست سرقة [٨٠] . ولكن يصر بيبرس على توبتهم وتغيير أفكارهم، فعاهده عثمان وجعل توبة مشاديده نصوحة ، وكما قبلت توبة زعيمهم عثمان ذهب بهم إلى رحاب السيدة نفيسة لتكون تلك القوى الروحية شاهدة عليهم، وتشد من أزرهم من المجاهدة في التوبة، وتحقيقها وخلاص النية وخاصة بعد خروجهم من المقام وعلمهم الوضوء والصلاة [٨١] .

وفي ذات السياق أن عثمان لم يستطع أن يترك جاهليته الأولى فجأة، فالعياقة أصبحت له صنعة ومهنة ، فكان نمط شخصية عثمان يختلف عن نمط شخصية بيبرس في

توبة العياق، فلا يعرف العياق إلا عثمان، فالبطل أعرف بدروب منطقته وبناسها وبطبائعهم، لذلك سخر عثمان من بيبرس عندما طلب بيبرس أن يجعل التوبة سريعة لهؤلاء المشاديد العياق (قال لعثمان توبتهم عن الأذية ولا تدعهم يؤذون أحداً من البرية، فقال له عثمان بعد أن ضحك عليه أتوبهم سواها) (٨٢).

لذلك فكر بيبرس في فكرة أخرى ، وهي أن يوفر لهم المال بأن يخدموه ، فيوافق عثمان على ذلك ، ويذهب إلى العياق ويطلب منهم التوبة ، وبما أن كبيرهم قد تاب وأناب ، فكانت توبتهم سريعة بعدما عرض عليهم المال(٨٣) ، وهنا تظهر أنساق العياقة الوظيفية في الفعل ورده ، وهو سماع كلمة قائدهم بما فيه المصلحة العامة التي تكفل لهم الحماية المطلقة، فإذا تحدث منهم فرد يتحدث بصيغة الجمع مما يدل على أن الكلمة والمواقف متوحدان ، فلو نجوا نجوا جميعا ولو هلكوا هلكوا جميعا ، فهم على قلب رجل واحد ، ولم تتم توبتهم في ملاعب ابن طولون (مجمع العياق) وإنما تتم في مكان مقدس تقبل فيه التوبة (٨٤).

ومن مظاهر تمرد عثمان دائماً على السلطة الحاكمة، أنه عندما طلب منه بيبرس تجهيز مركب صغير للذهاب لبولاق ومنها لبنها العسل ، أصر عثمان على أن يأخذ "الذهبية " وهي مركب الملك الصالح ، رغما عن الجميع ، وجهزها لبيبرس وكأنها العروس إذا انجلت ، والدنيا إذا أقبلت (٨٥) .

والأكثر من ذلك أنه طلب من الوزير الأغا شاهين يصاحب سفر بيبرس العديد من الخدم ، فرسم له ومائة مملوك بمائة خلعة ومائة ركوبة ثم رتب له طباخين وفراشين وكل ما يحتاج إليه ، وذلك دون علم بيبرس(٨٦) .

ومن مظاهر تمرد عثمان أيضا وإصراره على أخذ حق العامة عنوة ولكن بطريقة مشروعة وطريفة في نفس الوقت ما فعله مع الوزير نجم الدين البندقداري ،عندما طلب بيبرس منه إرسال سكر من بنها كهدية للوزير نجم الدين ، فبينما الوزير جالس في بيته وإذا به قد سمع ضجة بالخارج فرأى الأسطى عثمان ومعه ألف جمل وحمار محملين من عند بيبرس بهدية من السكر، ففرح الوزير وظن أنه سكر كثير، فقال للخازندار أخلوا الحواصل، فرد عليه بأنه رأس واحد من السكر ، ومن جبروت عثمان مع الوزير أنه أحضر الهدية "

رأس واحد من السكر " على ألف جمل وحمار وكل جمل عليه رأس واحد في قفص بعد أن لفها في الورق والخيط ، وأرغم الوزير على دفع أجرة الحمالين وتكاليف الأقفاص والورق والخيط لأصحاب الدكاكين ، فاغتاظ الوزير ورد عليه أن الهدية لم تجيء بربع الأجرة ، فأرسل إلى بيبرس وأعلمه بما حدث ، فقال له بيبرس وما منعك أن تجعلهم على جملين؟! ، فيرد عثمان " هذا لا يصح أبدا ربنا جعل ناس ترزق من ناس والكون عامر " (٨٧) .

ومن شدة خوف الناس منه أنه استطاع أن ينقل المحكمة بأكملها بقاضيها ومتاعها إلى حيث يوجد بيبرس ، بدلا من أن يكلف بيبرس مئونة الذهاب إليها ، كما بلغ من خشية القاضي أن أعلن استعداده للحكم له ولو بالباطل(٨٨) .

وتبدأ المرحلة الثانية من تمرد عثمان وهي مرحلة البحث عن مواطن الشر والفساد واصلاحها ، فينطلق بيبرس وعثمان – أو الحاكم والمحكوم كما ينبغي أن يكونا في رأي أصحاب السيرة بعد ذلك لتطهير مصر بل والعالم العربي من رؤوس الشر الحقيقيين ، من المماليك أنفسهم أصحاب السلطة ولصوصها الآثمين (من وجهة نظر أصحاب السيرة) ويدرك بيبرس أن عثمان لم يكن يوماً لصاً بالمعنى التقليدي فيقدر بواعث تمرده السياسية والاجتماعية ضد السلطة ويوافق على شروطه في التعاون معه ، وهي شروط تبدو في ظاهر الأمر غريبة لا معنى لها ، ولكنها لا تلبث أن تكشف عن مغزي سياسي واجتماعي عميق .. ويقوم خلالها عثمان من بيبرس مقام اليد والعقل معاً .. يشترط ابن الحبلة لخدمة بيبرس أن يشغل وظيفة تماثل أية وظيفة يشغلها بيبرس .. وهي حيلة فنية بارعة الدلالة في الكشف عن مواضع الفساد الداخلي الذي تعج به مصر ويقبل بيبرس هذه الشروط (٨٩)، أو يمكن القول أن تمكن بيبرس من المؤاخاة مع أولاد مصر وضمن أن تقف إلى جواره الجبهة الشعبية ، ومن ثم ينطلق بيبرس بعد ذلك بمساعدة عثمان بن الحبلة لمحاربة مظاهر الفساد والانحلال التي يعرفها عثمان أكثر من بيبرس نفسه ، فانطلقا معاً على هدف واحد (٩٠).

وبدأ عثمان بالإصلاح ، وفي ذات الوقت يعرف بيبرس بواطن الناس وكيف يتعامل معهم ، فعلى سبيل المثال كان أهالي الحسينية يجتمعون في دكان الشيخ يحيى الشماع وولده كريم الدين ، فتعرف عليهم بيبرس ، وظلوا أربعة أشهر يأكلون ويشربون على حساب بيبرس على رضا منه وتركوا صناعتهم ، فعرف بذلك عثمان الذي أراد أن يصلح حالهم

فاستعمل معهم الحيلة وأخذ منهم ملابسهم مقابل ذلك ومشوا عرايا في الشارع حتى قابلهم بيبرس وحكوا له فسأل عثمان لماذا؟ ، فرد عليه إن هؤلاء أولاد مصر ما منهم إلا صاحب صناعة يعمل فيها بقوته وقوت عياله فلما رأوك تركوها بصحبتك وقد صاروا أربعة شهور بطالين ومعك لاهين عن العمل، فعرف بيبرس حسن نية عثمان وأنه خائف عليه، وطلب منه أن يرد حوائجهم لأجل خاطره ، فردها عثمان على شرط ألا يرجعوا للهو واللعب ثانية والرجوع لأشغالهم وأعمالهم(٩١) .

وفي ذات السياق، وأثناء مرور عثمان بن الحبلة وبيبرس في حارات مصر وشوارعها، وجد عشرة صنايعية يصنعون القماش في حارة درب مصطفى بك ، وكان لهم في كل يوم سبت غداء يأكلونه في بولاق ، وأثناء ذلك مر كلٌ من بيبرس وعثمان ، فاتفقوا مع بعضهم على إرسال واحد منهم وهو الشيخ عوف لإقناع بيبرس أن يأتي إليهم بحجة أنه من أهل الأكرام وما يظنوا أنه يمنع نفسه عن الفقراء ولينادمهم ، وكان عثمان مخفياً وجهه ولا يعرفونه ، فاستاذن بيبرس من عثمان للذهاب لهم ، فذهبوا ، ففهم عثمان ما غرضهم من هذا ، وأراد عقابهم ، فكشف عثمان عن وجهه فعرفوه فوقفت اللقمة في أزوارهم خوفاً منه ، وعثمان يلعب لهم بشواربه ويظهر لهم بغيه ، وأخذ القصمة التي يأكلون منها وكان عليها رهن ستين فضة عند الرجل الزيات ، وكل ذلك وبيبرس لا يعلم ما يدور حوله ، وقام الاثنان للذهاب، فأرسلوا الشيخ عوفاً يستنجدون بيبرس لإعطائهم القصمة التي مع الأسطى عثمان ، فغضب بيبرس من عثمان على فعله هذا ، فرد عثمان " يا أشقر لا تقل هذا الكلام لأن هؤلاء يستاهلون ذلك وأكثر منه لأنهم ما عزموك إلا ليتمسخروا عليك ويستهزئوا بك ولولا أنى كنت معك ما كانوا الا يخونوك وأنا ما أكرمتهم إلا لأجلك ولولا أنك كنت معى ما كنت إلا قتلتهم "، فضحك بيبرس واستحلفه بإرجاع القصمة لهم (٩٢) .

وكملوا طريقهم إلى بولاق وأتوا إلى سوق السبت ، ووجدوا هناك رجلاً فقيراً يبكي ويندب ويشكى حاله ، وهو خادم في مطبخة العسل لرجل يهودي ، ويعمل عنده أربعة وظائف وهو أني ووقاد وكناس وملا ، وله عنده أجرة أربعة أشهر، ورفض إعطاءه أجرته لأن زوجته وضعت ولداً وسماه محمداً فغضب اليهودي وهاج وماج وقال له اذهب إلى بيتك وغير اسم ولدك وأنا أعطيك دراهمك وفوقها مائة دينار، فأخذه بيبرس وعثمان إلى اليهودي

صاحب مطبخة العسل لإرجاع حقه ، فطلب منه بيبرس إرجاع حق الرجل الفقير، فوافق اليهودي على ذلك مقابل أن يأتي ببيبرس بالفاحشة ، فغضب بيبرس وعثمان ، وتعاركا معه ومع السدار الذي يعمل مع اليهودي ، وقتلوهم الاثنين ، وعرض عثمان نفسه للهلاك والمسئولية أمام الملك الصالح والقاضي ، ولكن لم يهمه أحد وكان كل شاغله هو بيبرس وإنقاذه ، وقال له " كما أنت أخي أنا أخوك فكيف يا أخي يهون على أن تتعب وأنا أرتاح وكيف إذا ثبت عليك القتل تقتل وأنا أعيش بعدك لا كان هذا أبداً ،إذا متنا نموت جميعاً وإذا عشنا نعيش جميعاً [٩٣].

وتحدثت السيرة أن بـ يبرس كلما تولى منصباً رسمياً تقلد ابن الحبلة منصباً شعبياً مماثلاً فإذا ما أصبح بيبرس والي مصر أو كشافها أو محتسبها أصبح عثمان والي مصر أو كشافها أو محتسبها الصغير (الشعبي)، وشرعا بيبرس وابن الحبلة معا – السلطة الرسمية والشعبية– في كل وظيفة يتقلدانها يقضيان على اللصوص الحقيقيين في كل قطاع وظيفي في الدولة وأرباب الفساد ورؤوس الشر والفجور والظلم والبغى كما يطلق عليهم أصحاب السيرة [٩٤] .

وعلى سبيل المثال أن بيبرس لما تولى منصب سلاحدار السلطنة رسمياً ، تقلد عثمان منصباً مماثلاً فأصبح سلاحداراً صغيراً ، عندئذ يقود بيبرس إلى لصوص السلاحدارية القائمين عليها[٩٥] ، وإذا تولى بيبرس منصب أمير قصص أي رفع مظالم الشعب للسلطان، أصبح ابن الحبلة أميراً صغيراً للقصص، وعندئذ يوقف بيبرس على جور المماليك وحيفهم في نقل مظالم الناس إلى الملك الصالح ، فهم مرتشون لا ضمير لهم ، يكيفون هذه المظالم ، ويحرفون ويزورون فيها لصالح من يرشيهم ، فتصدر تبعاً لذلك أحكام جائرة دون أن يدري صواب القضية ، ويضيع الحق حينئذ على أهله ويعم الظلم [٩٦] ، ولما تولى بيبرس منصب الكاشف تولى عثمان قائمقام [٩٧] ، وأيضاً لما تولى بيبرس صنجق صار عثمان نائباً له [٩٨] وهكذا قرنت السيرة دائماً بين ثنائية المنصب الرسمى ممثلاً فى بيبرس والمنصب الشعبى ممثلاً فى ابن الحبلة.

ومهما يكن من أمر فقد صار عثمان هو المدبر لجميع شئون بيبرس في هذه المناصب ، وقام عنه بجميع المهام التي توكل إليه وخلصه من المآزق، حتى أن بيبرس لا

يستطيع أن يقطع برأي دون أن يأخذ برأي عثمان ومشورته وكان دائما يدعو الله أن لا يحرمه منه لأنه لم ير مثله[٩٩] ، في إخلاصه وخوفه عليه بل ويحميه من شر المماليك أنفسهم ومن مكائدهم فعلى سبيل المثال أخذ مماليك الوزير أغا شاهين الغيظ من بيبرس مما آل له من مكانة وصعود نجمه السياسي وتكلموا في حقه وحق الوزير بكلام لا يليق بهم ، واتفقوا على قتل بيبرس والطلوع عليه بعد خروجه من عند الوزير، وخرجوا وتنكروا في زي العربان حتى لا يتعرفوا عليهم ، وقطع الطريق عليهم فأعدمهم العافية كلٌ من بيبرس وعثمان ، فطلبوا المسامحة منهم وكذبوا عليه وقالوا إنهم عربان مكلفون بحماية الطريق ولا يعرفون أنه الأمير بيبرس، وبالفعل صدق بيبرس هذا لأنه غريب عن البلد، فقال لهم اذهبوا إلى حال سبيلكم بقلب سليم ، لكن هذا لم يخيل على عثمان ابن البلد وعرفهم وفهم ما ينوي إليه ، فأراد عثمان أن يلقنهم الدرس وينتقم لبيبرس ويحميه منهم حتى لا يتعرضوا لبيبرس مرة أخرى ، فانتظر عثمان أن بعد بيبرس عن مكانهم ، فهددهم إن لم ينزلوا من على خيولهم ويخلعوا كامل ملابسهم لضربهم برزته وسلمهم لسياسه ليخلصوا عليهم ، فخافوا منه ونفذوا أمره وتركهم عراة [١٠٠] .

وعرف الوزير أغا شاهين ما نوى مماليكه على فعله من البواب ، فخاف على بيبرس ولكن اطمأن قلبه عندما علم أن عثمان معه حيث قال " أنا أجازيهم على أفعالهم اذا هم أقبلوا منكسرين من يد خصمهم لأنى أعلم أنه أقوى وأشد منهم بأساً وأعظم مراساً لاسيما ومعه هذا الشيطان الذي لا يفرغ من إنس ولا من جان الأسطى عثمان .... ولا بد أن يأخذ خيولهم وما معهم من ملابسهم وأسلابهم ويتركهم عريانين يقاسون العذاب المهين " ، وما توقعه قد حدث بالفعل ، ويبدو من ذلك أنه يعلم شخصية عثمان جيداً ، لا يقوى عليه أحد ، ولا يدع حقه خاصة عند الطبقة الحاكمة[١٠١] ، وعندما علم بما فعله عثمان معه قال " وحق الملك ذي الجلال أن الفعال التي فعلها عثمان ما هي إلا فعال الرجال الذين لا يخافون الأبطال[١٠٢] .

وكان عثمان يحمى بيبرس أيضاً من مكائد وكيد مماليك قلعة الجبل ، فكان عثمان مراقباً لهم ويأخذ بحق بيبرس منهم أولاً بأول ، فعندما اغتاظ مماليك القلعة من بيبرس وكانوا

يأكلون طعامه المخصص له انتقم منهم عثمان وسلب كل ما لهم وهم نائمون، وقال لبيبرس " لما اعتدوا علينا بجوع الكبد فأنا لا اعتدي عليهم إلا بجوع الجسد "(١٠٣).

وحمى عثمان بيبرس أكثر من مرة من شر والي مصر حسن أغا بعدما اتفق مع القاضي صلاح الدين على قتله ، ولكن حماه عثمان ، وأعمل عثمان حيلة عليه وقبض عليه هو ورجاله وضربه في الحارة خمسين نبوتا على أضلاعه وأركبه على الحصان بالمقلوب وأمامهم العامة يصفرون ويضحكون وانتهى الأمر بقتله أمام الملك الصالح والحاضرين بعدما ثبت كفره وضلاله على يد عثمان (١٠٤).

ويرى أحد الباحثين(١٠٥) أن السيرة صورت الطبقة المصرية – بطريقة غير مباشرة– المتمثلة في شخصية عثمان بن الحبلة ثورة الشعب على نظام الحكم ومحاولة اشتراكه فيه ، بل إنها توسعت في ذلك بعض الشيء إذ أدخلنا العنصر الفلسفي كقيام العصاة الخارجين على القانون وكثرة أعدادهم وتبرير أعمالهم ، أو بعض أعمالهم على الأقل ليست ضربا من ضروب الاغتصاب والنهب، وإنما هي أولاً وقبل كل شيء ثمرة من ثمرات الحكم الفاسد ولون من ألوان التعبير عن فساده ، ثم إن تصوير عثمان سائس الخيل بأنه ولي من الأولياء كشف عنه الحجاب ، وأصبح على علم بالباطن وجعله مستشارا للأمير بيبرس ، يقوم منه مقام العقل واليد معا، يبين لنا رغبة هؤلاء العامة المكبوتة في الاشتراك في الحكم وقدرتهم عليه ومحاولة إصلاحه.

وليس معنى ذلك من قبيل التندر ، ولكن معناه أن سلطات بيبرس هي سلطات شعبية ، وأن غايات الحاكم هي غايات شعبية ، وليس ثمة تضارب بينهما ، معناه كذلك أن يثق بيبرس بعثمان ابن البلد وهذا يعنى وحدة الأهداف والرؤية، معناه أن ينطلق عثمان لمحاربة الشر والفساد دون أن ينتظر أوامره من بيبرس ، كما يبدو أن هذا التقليد الذي اتبعه بيبرس مع عثمان مقولة أخرى على غاية الأهمية وهي أن الإصلاح لم ولن يتم بقرار يصدره الرئيس وتفرضه السلطات ، بقوة السيف وحده ، ولكن بفضل تعاون المجموع مع صاحب القرار ومشاركتهم معه في اتخاذ هذا القرار فيستشعرون أنه نابع منهم وإليهم، إذ لولا عثمان بن الحبلة الذي يقوم مع بيبرس بالإصلاح الداخلي –مقام العقل المخطط واليد المنقذة والعين الحارسة، بعبارة آخرى فإن مسئولية الإصلاح مسألة مشتركة بين الحاكم والمحكوم تقوم على

التعاون لا على الاستعلاء، تلك هي الرؤية الشعبية الملحمية الجديرة بالتنويه في تلك السيرة (١٠٦).

ولا يكتفى ابن الحبلة بهذه المناصب الرسمية ، فيحرض بيبرس على بناء نموذج مصغر للمجتمع المثالي الذي يحلمان بتحقيقه ، ويظل عثمان وراء الملك الصالح حتى يحصل على موافقته بالسماح له ببناء قيصرية مملوك حارة ، بدكاكينها ، وربع فوق كل صف من الدكاكين ، وبيوتها ، ويشترط عثمان ألا تخضع لإشراف المحتسب أو والي مصر ، بل ويهدد الملك الصالح بأن كل من يتدخل في أمرها مهدور دمه ، ويدرك الملك الصالح ولي الله المجذوب ببصيرته مغزى ما يهدف إليه ابن الحبلة ، فيساعدهما على بناء القيصرية بهذه الشروط ويبارك هذه المرحلة الجديدة من نضال بيبرس وعثمان ويأمر الأغا شاهين بإصدار فرمان سلطانى بذلك (١٠٧).

ولا يكاد هذا البناء يكتمل حتى استقطب كل الشرفاء العاملين في كل الطوائف الطامحة في مجتمع نظيف، فلا مضت ثمانية أيام إلا والحارة عامرة من الدكاكين والبيوت مسكونة وصارت الحارة عامرة ليلاً ونهاراً، وصارت هذه الحارة بيعاً وشراء وتبعتها النساء والرجال وسكنوا فيها عطارين ونقلية وحلوانية وفطاطرية ، وقد امتلأت الدكاكين وكان يزيد على التسعين دكان ، ويحلو للقاصِّ الشعبي أن يعقد مقارنة دالة بين ما يسود هذه القيصرية من عدل وإنصاف ، وبين ما يسود المجتمع الكبير من ظلم وإسراف ، وإذا الفتن والشرور والفساد والتزوير والتدليس والتلاعب في السعر والصنف والغش في المعاملات إلى غير ذلك من مظاهر الفساد التي تحكم المجتمع ، وتعود جميعها إلى القائمين على السلطة آنذاك ، لا إلى الشعب نفسه ، بسبب ما يفرضونه من إتاوات وعمولات باهظة ، واحتكام للبضائع وغير ذلك ، وأمام هذه المثالية التي اشترطها عثمان في الواقع وأشرف على تنفيذها وصارت هذه الحارة لامثيل لها الأمر الذي دفع ابن الحبلة لبناء أربع حارات أخرى مماثلة وكلها أخذت في النمو والازدهار حتى اشتهر أمر هذا المجتمع المثالي المنشود ، ولأول مرة يشعر الناس بالأمن والأمان في ظل هذا النموذج أو المثال ويزدهر الاقتصاد ويعم الرخاء وتحلو الحياة للناس ، وأصبحت كل حارة كالعروس المجلية(١٠٨).

وأصبحت هذه الحارة بتعبير السيرة غابة الأسود لا أحد يقدر أن ينصب عليهم غارة ، بفضل عثمان بن الحبلة ورجاله الثمانين ويتبع الثمانين ثمانية وثمانون [١٠٩]، ولكنها لم تكن لتحلو لطائفة أخرى حيث أضرت بمصالحها الاقتصادية وهي طبقة كبار المحتكرين والإقطاعيين وأرباب السلطة المتعاونين معهم المستفيدين بالتأكيد من حالة الفوضى والانحلال ، ويدركون جميعا أن عثمان وحده هو السبب في هذا ، ولكن القضاء على ابن الحبلة في رأيهم من المستحيل ، والقضاء على بيبرس ما دام في حماية ابن الحبلة مستحيل أيضا، فتآمروا في الظلام على حرق هذا المجتمع الجديد أو المثالي بمن فيه وما فيه [١١٠] .

وكان على رأس هؤلاء المتأمرين : قاضي القضاة صلاح الدين (جوان) الذي صورته السيرة بأبشع الصور فهو في حقيقة أمره ليس إلا جاسوساً صليبياً ادعى الإسلام ليكون عيناً على المسلمين، والحق أن القاصَّ قد أجاد هنا رسم شخصية (عثمان بن الحبلة) في إطار التصور المشترك للثائر المتمرد، وإن كان قد ميزها ببعض السمات الفردية، ويكون عثمان أول من يكشف حقيقة هذا القاضي، ولم يكن يأبه به وبأحكامه، فلما أراد كشفه وهتك سره ، أمره الملك الصالح أن يمسك " فإن له عيشاً لابد أن يوفيه "، ولكن عندما يحين الحين يقع الصراع الكبير بين عثمان وبين جوان، وإن لم تكن نهاية جوان على يديه، فإنه قد كشف حقيقته وسعى إلى طرده نهائياً من مصر وبلاد الإسلام [١١١] ، فيقول بيبرس يا ليتنى طاوعت عثمان لقد حذرني منه كثيرا وأنا لا أصدق[١١٢]. ولطالما كشف ابن الحبلة أمره، ولكن من يصدق كلام ابن الحبلة (الخارج عن القانون) ويكذب قاضي القضاة ؟! الذي يعجز عن إدانة ابن الحبلة أو بالأحرى لا يطوله قانونياً[١١٣] ، فيمضى إلى حسن أغا والي مصر محرضاً على حرق هذه الحارات الجديدة ولشدة ما تفاجأ عندما علم والي مصر نفسه ليس إلا مسيحي ادعى الإسلام طمعا في هذا المنصب فناله بالرشوة والمال [١١٤] ، فلما لجأ إليه قاضي القضاة أسقط في يده فمن (يقدر على حرق حارات يحميها ابن الحبلة) على حد تعبيره .. فيلجأ كلاهما إلى كبير مقدمي الدرك في مصر [١١٥] .

وتظهر السيرة المفاجأة الأكبر ، حين نعلم أن كبير مقدمي الدرك واسمه المقدم "مقلد" ، هو في حقيقة أمره من أولاد الزنا ورأس كل حرامي، وله رجال من تحت يده تسطو على البلاد في الليل حتى القوادون يعملون من تحت يده وهو لا يخشى الملام لأنه تربى

على أكل الحرام والغش وارتكاب الآثام ، وهو مقلد بالشر كاسمه ، يلوذ به كل الخارجين عن القانون ، نظير إتاوة معينة، يفرضها عليهم مقابل أن يتستر عليهم ويطلق سراحهم [١١٦] .

ويشرع القاصُّ الشعبي بعدّ أنماط هؤلاء الخارجين على القانون فاذا هي جميعاً أنماط مرفوضة قانونياً واجتماعياً ، تصدر في سلوكها عن نزعة شريرة عدوانية لا يتعاطف معها المجتمع الشعبي أبداً ، فإذا ما توسل هؤلاء المسئولون الثلاثة بالمحتسب الذي لم يكن خيراً منهم ، نصل إلى صدق مقولة الراوي الشعبي (حاميها حراميها) ، ويفشل هؤلاء الأربعة في حرق حارات بيبرس وابن الحبلة وتحامله الدائم عليهم ، ويوقن بأنهم اللصوص الحقيقيون ، وأن معركته الحقيقية مع هؤلاء ، ولكن تظهر السيرة أن عثمان هو من يتصدى لهم ويتلاعب معهم بالحيلة والقوة والشجاعة ويكشف أمرهم [١١٧] .

فاتفقوا جميعا مع شيخ العرب حرحش على حرق القيصرية والحارات، وهو كما تصوره السيرة شيخ منصر جبار ويحكم على ثمانين لصاً وكلهم من أولاد الزنا، إلا أنه كان فيه شيء من المروءة فكان يحن على الضعفاء والمساكين والنساء ويحميهم ويكونون في حمايته، أما التجار فكان ينهب أموالهم وكان يتجنب سفك الدماء، وعندما عرف أن الحارة المراد حرقها بجوار السيدة زينب رفض لمقامها العالي ولكن أرغمه المقدم مقلد، فاتفق الأخير مع رجاله الثمانين على حرقها ليلاً، فعرف عثمان بذلك فجمع مشاديده وأصحاب الدكاكين والسياس ورسم معهم خطة لإيقاعهم ، وبالفعل نجحت خطة عثمان وأمسكهم جميعاً وربطهم، وكانت توبة " حرحش " على يده ، والذي أصبح في خدمة عثمان [١١٨].

يخوض عثمان الصراع أول ما يخوضه ضد والي مصر .. حتى إذا ما انتصر يقلد الملك الصالح بيبرس منصب والي مصر وكذلك قلد ابن الحبلة والياً صغيراً ، وعن طريق هذا المنصب يصطدم بيبرس بكبار التجار والحرفيين، ونعرف أنهم طبقة فوق القانون وأن قانون الوالي لا ينطبق إلا على لصوص وحرامية العامة ، أما هم فلهم قانونهم الخاص [١١٩] .

وما زال بهم بيبرس – سلماً وحرباً – حتى استجابوا لمطالبه ، وقبلوا التعاون معه في ضرورة إيجاد قانون عادل يحكم بينهم وبين الرعية، ولكن أنى لهم يطبقوا العدل والإنصاف –كما أمرهم– ووراءهم محتسبون لا يرحمون، يفرضون عليهم الإتاوات المادية والعينية كل

يوم، الأمر الذي يدفعهم إلى تطفيف الكيل ورفع الأسعار، وتدليس المعاملات، وفاء بهذه الإتاوات الباهظة ، وعندئذ يصطدم بيبرس بالمحتسب ولا يستجيب المحتسب لدواعى الإصلاح فيكون مصيره القتل جزاء وفاقاً على ظلمه وبغيه واستغلاله لمنصبه(١٢٠) .

ولكن الأمر مختلف –في السيرة– حيث إن عثمان بن الحبلة بمشاديده الثمانين وأهل الحارات يعرفون كيف يواجهون هذه المؤامرات ، مواجهة إيجابية تصل إلى حد الحروب من أجل حماية مكاسبهم الجديدة من بطش الباطشين ، ويكون الصراع حافلاً بين الطرفين ، فينتهى أن يقتل عثمان والي مصر شر قتله، وعندئذ لا يجد الملك الصالح خيراً من بيبرس لتولية هذا المنصب وبـ التالي تولى عثمان والياً صغيراً ، وتضاعفت مسئوليات بيبرس وعثمان معاً، ويكون في هذا المنصب سبيلاً لمعرفة مواطن العفن والفساد، ولذا به يعرف أن سر البلاء يكمن في كبير مقدمي درك مصر الذي يفرض نفوذه وحمايته عليها فيتحايل عثمان عليه ، حتى يجمع له كل أولاد الزنا والأشقياء الذين تحت يده ويخيروهم بين التوبة والصلاح وعمل عملا شريفا أو القتل فتاب أغلبهم وهدأت الأوضاع في مصر(١٢١) . ثم يحمى بيبرس من مكيدة أيبك والقاضي صلاح الدين اللذين اتفقا على قتله غدراً فاتفق عثمان مع مشاديده على حيلة طريفة للايقاع بهم وبالفعل تمت الحيلة وحمى بيبرس من القتل(١٢٢)، ويحميه مرة بعد مرة بعد الحيلة على بيبرس بادعاء جماعة من النصارى أنهم من الأشراف وأنهم من طرف السيدة فاطمة الأقواسية التي تولت رعاية بيبرس في الشام قبل مجيئه مصر وبالفعل صدقهم بيبرس كعادته وأدخلهم بيته وعثمان يحذرهم منهم ويقول له إنهم منقرشين عرفة القاضي صلاح الدين " جوان " وبيبرس لا يصدقه حتى خدروا بيبرس ونووا على قتله لولا عثمان الذي استنجد بالملك الصالح وأنقذه من الهلاك (١٢٣)، بل ويحميه خارج مصر حينما أمر أيبك القان هلاون بقتله وكان عثمان سبباً في نجاة بيبرس (١٢٤) ، وأنقذه أيضاً عندما اتهمه أيبك بدس السم للملك الصالح فأرسل ولده تورانشاه في القبض على بيبرس ولكنه أنقذه وحماه (١٢٥).

ويتولى بيبرس عندئذ وظيفة المحتسب وابن الحبلة معه، وما زال في هذه الوظيفة حتى طهرها من اللصوص الحقيقيين القائمين عليها (١٢٦)، ومن الجدير بالإشارة أن الملك

الصالح ولى بيبرس هذا المنصب كرامة للشيخ عثمان على حد وصف السيرة[١٢٧]، وعندئذ أطلق على بيبرس لقب العادل كما أطلق على ابن الحبلة العادل الصغير أيضاً [١٢٨] .

ومن العادات التى أقرها عثمان أن جعل الرايات تشيع بين الناس طوال شهر رمضان ، فيغلق الناس دكاكينهم ويحضر المشايخ بكل طوائفهم بأفخر الثياب راكبين على الخيول المسومة وأفراد الحرب يكونوا بالتبديلات المعظمة ، والمناداة بعد رؤية الهلال صيام صيام حكم من شيخ الإسلام [١٢٩].

ولكن مصر القاهرة ليست كل الديار المصرية ، عندئذ تتصاعد الأحداث ، وينتقل بيبرس وابن الحبلة معه إلى الأقاليم فيتقلدان خلالها ما شاء لهما القاصُّ من مناصب ولا يعودان إلى القاهرة إلا بعد تطهير هذه الأقاليم من رؤوس الشر والفساد ، ويكون كذلك اصطدامهما بالعربان وما يثيرونه من فتن وقلاقل [١٣٠] ، فعلى سبيل المثال جعل الملك الصالح بيبرس ملتزماً بها ، وواجه هناك عدة صعاب ومشاكل لم يكن يقدر عليها دون وجود عثمان بن الحبلة ليس فقط لأنه ابن البلد الأصلي العارف بأحوال الناس، ولكن لما يتسم به من الذكاء والفراسة ومعرفة بواطن الناس، ففي إحدى القضايا ببنها العسل اتهم سرجان أبيه بالتبني المعلم شرف الدين أن قتل عشرة أشخاص دون ذنب وجاء بشهود على ذلك ، فطلب من بيبرس تنفيذ حكم القصاص من المعلم شرف الدين وقتله ، لكن صاح عثمان وقال " يا دولتلي وحق مالك الممالك الذي كل شيء دونه هالك هذا الرجل مظلوم وحق الحق القيوم ولا جرت منه هذه الفعال وحق الملك المتعال والذي أقوله أنه هو الذي ينفعك في أرض بنها العسل ويظهر لك الأصيل والزغل وأنا قد عرفته أكثر منك فتأني في أمرك وفعلك ولا تكن عجولاً وما قال هذا عنه إلا من هو أفسق خلق الله تعالى " ، فرد عليه بيبرس سمعاً وطاعة وقد علم أن قوله صواب، وبالفعل توصلوا إلى الحقيقة بفضل عثمان وتأكدوا من صدق كلام عثمان والمعلم شرف الدين فقبض بيبرس على ابنه بالتبني سرحان ووكل عثمان بتولى أمره وسجنه، ويرجع للمعلم شرف الدين حقه وماله وأملاكه [١٣١] .

وكذلك استنجد الشيخ إبراهيم شيخ عرب الغربية ببيبرس وعثمان لتخليص ابنته "بدرية " من يد شيخ عرب يدعي أبا ناب وأخيه عجوة اللذين اتخذاها ضجيعة لهما

ولخادمهما سعيد، فجمع عثمان مشاديده الثمانين ورجال عقريب وخلصوا البنت والبلد كلها من شرور هؤلاء الأعراب وقتلوهم شر قتلة وردوا للشيخ إبراهيم ابنته رداً جميلاً (١٣٢) .

وفي ذات السياق تروى السيرة أن ثمة فتنة قد نشبت في الجيزة قادها بعض شيوخ الأعراب وقد قتلوا فيها كاشف الجيزة ولم يجد الملك الصالح إلا بيبرس وعثمان للتصدي لهم ، فولي بيبرس منصب الكاشف وعثمان كاشف أصغر وبعثهم هناك كي يصلح شأن الجيزة ويطهرها من الفساد ويصلح شأن العباد (١٣٣)، وبفضل عثمان بن الحبلة نجح بيبرس في إخماد هذه الفتنة واقتلع رأسها وقضى على أتباعها من أعراب الصحراء وطهر الجيزة من الفساد ومن أولاد الزنا والأشقياء وقد حل العدل والإنصاف محل الجور والإسراف (١٣٤).

ثم يحدث بعد ذلك أن يقتل كاشف إقليم الغربية بالمحلة فذهب بيبرس وعثمان للكشف عن هذا الأمر، ونجح عثمان في مهمته بعد صعوبات جمة كاد يفقد فيها حياته ولا يعود إلى القاهرة إلا بعد أن يبعث للملك الصالح " بأنا أقمنا فيها الأحكام بالعدل والإنصاف وطلبنا الباغي نجم البحيري أكبر شيوخ الأعراب في ذلك الإقليم ومن له من العربان الباغين ومحقناهم أجمعين (١٣٥) ، ويعمل عثمان على بناء قنطرة وقيصرية بها وجمع البنائين والحجارة والمهندسين لعمارتهم (١٣٦).

ويستعرض القاص بعد ذلك كيف عم الأمن والرخاء والعدل والإنصاف من خلال المناصب العديدة التي تقلدها كل من بيبرس وعثمان في أقاليم أخرى وفي قطاعات أخرى يساهم القضاء عليها في خلق مجتمع مثالي منشود خال من ضروب الشر والفساد (١٣٧)، بل إن عثمان كان يعدل على أحكام بيبرس ويأمره بالتريث وعدم الظلم وسماع المظاليم لآخر الأمر فيتضح لبيبرس رجاحة رأي عثمان ساعتها يطلب بيبرس المسامحة من العامة والدعاء له ، بل إن عثمان لم يكتف بذلك بل جعل هذا المظلوم يضرب أحد مماليك بيبرس بالكف كما ضربه (١٣٨).

وتتطرق السيرة للحديث عن الوضع بعد وفاة الملك الصالح وتولى عز الدين أيبك غافلة عن فترة حكم شجر الدر، فبعد وفاة الملك الصالح وأصبح عرش مصر الآن للأمير عز الدين أيبك فجمع حوله أرباب الشر والفساد من المماليك ، فحانت ساعتهم للانتقام من

بيبرس فزينوا للسلطان الجديد عزل بيبرس من مناصبه ، وكان إذ ذاك متوليا أمر قضاء مصر –فعزله عن جميع مناصبه ، أهمها منصب القضاء (١٣٩) .

غير أن الشعب المصري المتمثل في عثمان بن الحبلة وقف إلى جوار بيبرس رمز الخلاص ، فيقوم عثمان بإنشاء ديوان آخر للقضاء، لنا أن نسميه الديوان الشعبي في مقابل ديوان القضاء الرسمي الذي يترأسه السلطان نفسه الذي يخضع للأهواء والوساطة ، ويعمل عثمان التخت مثل تخت أيبك وكرسي مثل الذي في ديوانه وأربع مدافع مثل مدافع الديوان الرسمي، وقابل عثمان شيخ الإسلام المعز بن عبد السلام وأخذه هو وسائر العلماء وجمع كل العامة والأشراف والسادات وأجلس بيبرس على التخت ، كل هذا دون علم بيبرس ودائما عثمان يفاجئه ويعمل له ما فيه الخير والصالح (١٤٠) . ولذا بالديوان الشعبي يحقق العدل الذي عجز أيبك عن تحقيقه ، فانصرف الناس عنه واحتكموا بديوان ابن الحبلة ، يدفعهم إلى ذلك نزاهة ما يصدره من أحكام عادلة ، ويحلو للقاصّ الشعبي أن يعقد مقارنات لطيفة ساخرة – تقوم على المفارقة – لقضايا مشتركة تعرض على الديوانين (الرسمي والشعبي) ، الذي وقف إلى جواره لأول مرة علماء مصر وقضاتها الشرفاء، وساندوا بيبرس وابن الحبلة وشهدوا لهما بالعدل في الأحكام (١٤١).

وبنى عثمان بجواره رباعاً ، ربعة للحرمين الشريفين ، الربع الثاني للعلماء والأشراف ، والثالث إلى سيدنا الحسن والحسين والسيد أحمد البدوي ، والربع للفقراء والمحتاجين وعابري السبيل ، وكل من سكن به يدفع أجرته لهؤلاء. وأراد أيبك أن يهدمه فتصدى له عثمان وأتباعه (١٤٢) .

ولهذا لم يكن عبثا أن تتكتل ضد بيبرس مراكز القوة والشر وأن تتحالف جميعاً ضده ، ولكن بفضل عثمان بن الحبلة ابن البلد ، ابن الشعب ، إلى جواره استطاع أن ينتصر عليهم جميعا حتى طهر المجتمع المصري منهم وأنشأ المجتمع المثالي المنشود كما يطمح إليه الوجدان الشعبي (١٤٣) .

ولهذا لا غرو أن ترجي السيرة بلوغ بيبرس عرش مصر سبع مرات ، إلا بعد أن يقف بنفسه –بفضل عثمان– على مظاهر الفساد الداخلي في مصر أولا ثم الشام ، حيث يفلحان في القيام بأكبر حركة تطهير داخلية يركز عليها أثر فني شعبي ، لينطلق سائر

الأبطال بعد ذلك لمواجهة العدو الخارجي ، وقد غدا بيبرس القائد مهيئاً لأن يلعب دوره التاريخي في مواجهة الغزو القادم من الغرب الصليبي والشرق التتري، بعد أن أرسي بالتعاون مع عثمان دعائم المجتمع الجديد من الداخل (١٤٤) .

بل لا غرو أن يصبح عثمان صوت القدر في الملحمة نفسها بعد أن كشف عنه الحجاب وأصبح من أهل الكشف والكرامات(١٤٥) ، ويكون له الولاية ويصير من الخواص المصطفين (١٤٦) ، فمن كراماته أنه من كان يعطيه عثمان سبعة من الفقراء فضة أغناه الله غناء لا فقر بعده ، وكذلك كل من يضربه عثمان وبه عاهة تذهب عنه تلك العاهة أو الداء ويعود سليماً معافي (١٤٧)، فإذا ما خالفه بيبرس وقع في مكائد مميته وقاتله لولا أن يتداركه عثمان في الوقت المناسب(١٤٨)، بل والملك الصالح يقول لبيبرس طاوع عثمان ولا ترد له رأي ، فكان بيبرس يقول لعثمان يا عثمان إنى مأمور أن أطاوعك في جميع ما تقول لي عليه وها أنا طائع (١٤٩) ، وعندما مرض الملك الصالح مرضه الأخير طلب عثمان بإحضاره وطلب منه الدعاء له (١٥٠) وأصبح الملك الصالح والوزير وغيرهم يلقبه الشيخ عثمان(١٥١) بل وإن السيدة نفيسة تظهر لبيبرس في المنام وتقول له لا تخاف ولا تحزن أنت الظافر ولكن طاوع عثمان فيما يأمرك به تظفر عدوك ولو خالفته تحصل لك مشقة فاتق الله وطاوعه فإن الله له في خلقه سر خفى لا يعلمه إلا هو وأنت طاوع عثمان(١٥٢)بل أضحى يتنبأ بانتصارات بيبرس وهزائمه في مرحلة الجهاد الخارجي، لكن ذلك العلم بالغيب لا يرفع المقدور ولا المحظور ، ومن ثم كان يؤثر عثمان الصمت أو يبشر بيبرس بالنصر في النهاية بعد أن تضاءل دوره في مرحلة الجهاد الخارجي(١٥٣).

وتظهر السيرة أن بيبرس رجلٌ طيبٌ يصدق الناس بسهولة وأنه ساذجٌ وهي الصفة التى تجلب له الشر، وفى كل مرة كان عثمان يحميه ويعرفه نواياهم وخباياهم ويحذره منهم ويكشف أنهم مدسوسون على الإسلام (١٥٤) .

ويرى الباحثون المعاصرون أن عثمان ابن الحسينية رمز شعبى أصيل ذكى لماح ساخر متفائل مؤمن (١٥٥)، كما رأوا فيه انعاكساً للرغبة الشعبية المكبوتة في ممارسة الحكم آنذاك ، وتأكيداً لمطلب شعبي ملح في الإصلاح الداخلي، كما رأوا فيه رمزاً مجسداً لمصر كلها ، استطاع القاص أن يكشف من خلال علاقته بالظاهر بيبرس مناحى الفساد ومظاهر

الانحلال والفساد في المجتمع المصري، كما كشف عن انعزال الحاكم بكل أجهزته عن مشاكل الشعب الحقيقية وما يعانيه أهل البلد الأصليون، لذا فهو بطل متفرد استخدم شطارته في تحقيق هذا الهدف النبيل (١٥٦) . فضلاً عما اتصف به من الشجاعة إلى جانب الحيلة مع سائر الفضائل التي لا بد أن يتحلى بها الشطار والعيار ، كذلك رأى فيه أصحاب السيرة أنه ندٌ لأكبر رأس في مصر من السياسيين والحكام (١٥٧) .

وفي الوقت الذي ازداد إعجاب المجتمع الشعبي بابن الحبلة – ابن مصر الحبلى دائماً بالأبطال – دلالة رمزية واضحة لدوره الشعبي .. حتى لتفرد له السيرة ديواناً باسمه " ديوان الأسطى عثمان بن الحبلة " هو أعظم دواوينها الخمسة ، فمن يتبع خطوات عثمان وينظر إلى صورته ويستمع إلى حديثه يجد فيه أنموذجاً للمصري الثابت في جميع العصور من فكاهته وترفعه (١٥٨).

أما بيبرس البطل الملحمى فقد كان أكثر الحكام ذكاء في فهم بواعث ابن الحبلة فلم ير في أسلوب الشطار والعياق والزعار الذي تزعمه إلا دليلاً على فقد الثقة بين الشعب وحكامه، وتعبيراً متمرداً ضد واقع سياسي واجتماعى مرفوض شعبياً فكان هذا التآخي الرامز بينهما هو البداية الصحيحة لبناء المجتمع المثالي في رأي أصحاب السيرة (١٥٩) .

وكان عثمان غاية في الصراحة والتجرد من النفاق ، يقول ما يريده ولا يحفل كثيراً بمقام من يخاطبه ، ولا بعواقب حديثه ، والشواهد على ذلك كثيرة ، فكان يخاطب الوزير نجم الدين البندقداري "بأبو فرمة" ، والملك الصالح أبو جوطة ، وأيبك عين القط اللقيط ، أما القاضي صلاح الدين فكان يقول له يا منقوش ياللي من الحارة الضيقة (١٦٠) . وكان لا يحترم الملك الصالح ويقول له إنك رجل تيس فيرد الملك الصالح " الله يسامحك يا عثمان في كل ما قلته في حقي "(١٦١) ، وكان يقول لبيبرس إنه لا يخاف من الملك الصالح ويهدده ويطلع إلى القلعة يضربه بالرزة ويأخذ روحه (١٦٢)، ويقول الملك الصالح له " يا شيخ عثمان أنت دائما تعايرنى أنا لا أحد علمنى كفة ولا جرة هو أنا رجل سايس (١٦٣) .

ومن ملامح صراحته أنه لايبقى على سر ، لا من ضعف أو من خيانة ، بل من الشعور على القدرة وعدم الاكتراث ، حتى نجد أن الملك الصالح دائماً ما ينصح عثمان بأن يكون من " كاتمى الأسرار لا كاشفي الأسرار " ، لكن عثمان لا يأبه – عن عمد – بكتم

هذه الأسرار التى يجد لذة كبرى في كشفها ، بقصد تفتيت مرارة الأعداء ، عندما يبوح لهم بأسرار بيبرس وتوفيقه وسعده وما يمتلكه من ذخائر وغيرها (١٦٤) .

ومجمل القول أن الأسطى عثمان كان في بدء حياته شقياً متمرداً متزعماً لطائفة الشطار والعياق لتبحره في العياقة والشطارة وقوة شخصيته، إلى جانب تجسيمه لأخلاقيات ابن البلد الأصيلة في خفة الروح والاتجاه إلى المرح وتحويل المواقف القاسية العسيرة من الناحية النفسية إلى وسائل للفكاهة وانبساط النفس وتأكيد التفاؤل من ناحية ، وفقدانه الثقة بالسلطة الحاكمة آنذاك متحدياً لها ، ويحكى موقفه " موقف الشعب كله " متمثلاً به ، من السلطة حتى كان لقاؤه بالحاكم المثالي المنتظر الموعود "بيبرس" ، كان لقاء عسيراً اضطرت معه أقطاب مصر وحراسها من الأولياء للتدخل وتعويض هذه الثقة ، فإذا ما تم التعاون بين الجانبين انطلقا معا في تأسيس المجتمع المثالي المنشود ، الأمر الذي يمكن أن نعد معه عثمان بن الحبلة بطلاً من أبطال التحرير ورمزاً صريحاً للمقاومة الشعبية ، ودور الشعب البناء والنهوض بالمجتمع (١٦٥) .

وحسب السيرة فلقد عمر عثمان طويلاً حتى أنه مات بعد البطل الملحمي بيبرس في أيام الأشرف خليل بن قلاوون وقد أوصى بأن يدفن بجوار الملك الصالح نجم الدين أيوب بباب النصر فكان له ما أراد (١٦٦) .

والحق أنه مات وجدانياً فى السيرة قبل ذلك بكثير، عندما انتهى دوره بظهور جمال الد ين شيحه، وقد أضاف القصاص على عثمان صفة الولاية وأصبح " القطب الكبير " من بين الأقطاب الذين يحمون مصر حتى بعد موتهم وهم في أضرحتهم ، وكانت براعة الراوى أن أظهر عثمان بأنه القوة الدافعة للبطل والمناكفة لأعدائه، وانتهت هذه القوة أو وقف تأثيرها حينما امتدت رقعة الأحداث خارج البيئة المصرية إلى الشام والروم وغيرها (١٦٧) .

ولم يكن عبثاً أن ينتهي دور عثمان في ملحمة سيرة الظاهر بيبرس بانتهاء دوره الاجتماعي الذي رسمه له القاص في الملحمة بأبعاد خاصة ، وهذا صحيح إذ تضاءل دور عثمان في المرحلة الثانية واكتفى من الحياة العامة بأن أصبح " أمير بخور السلطنة " وهي وظيفة شرفية كما يبدو ، ليحل محله جمال الدين شيحه (١٦٨) .

ولعل تلك النهاية التي انتهى إليها دور عثمان بن الحبلة تؤكد إحدى حقائق حياة الشعب المصرى بأنه شعب صناعته الحضارة والسلام قبل أن تكون السياسة حرفته ، شريطة أن يحقق له الحكام العدل الاجتماعي والاستقرار (١٦٩) .

والسيرة مليئة بعد ذلك بنماذج أخرى من كبار الشطار والعيار ولكن شتان بين غايات نبيلة وأخرى غير نبيلة، وقد تحدد موقف بيبرس وكذلك موقف كتاب السيرة من هؤلاء جميعاً في ضوء نبل الغايات التي يصدرون منها (١٧٠) .

ولعل أفضل ما قدمه هذا الأثر الفني الشعبي هو أن التمرد الفردي مهما بلغ من عنف صاحبه وإزعاجه للسلطات فلن يغير من الواقع شيئاً، غير أنه عندما وضع هذا المتمرد يده في يد بيبرس البطل الملحمي – وكان متمرداً كذلك– وتبلورت غايتهم القومية فارتقى تمردهم إلى مستوى البطولة أو التمرد الجماعي الذي اكتسب ثوريته من هذا الموقف الجماعي لا من حيث عدالة قضيتهم فهي عادلة من البداية (١٧١) . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن أهم ما تمتاز به السيرة فنياً وموضوعياً هو الجانب الذي لعب فيه عثمان بن الحبلة ليس فقط دور الثائر المتمرد بل دور البطولة – جنباً إلى جنب– البطل الملحمي بيبرس ، للقضاء على كل ألوان القهر الاجتماعي والسياسي والثقافي والنفسي الذي عانى منه الشعب المصرى على مدار العصر المملوكى (١٧٢) .

قائمة المصادر والمراجع

اولا : المصادر العربية :

ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس) ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م.

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٨م.

البقاعي: (إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر) ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م.

- إظهار العصر لأسرار أهل العصر المعروف بتاريخ البقاعي، تحقيق محمد سالم بن شديد العوافي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ١٩٩٣م.

بيبرس المنصوري: (ركن الدين بيبرس بن عبدالله المنصوري) ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م

- التحفة الملوكية في الدولة التركية تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨-٧١١هـ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م.

الجوهري: (إسماعيل بن حماد الجوهري) ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م.

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

ابن حبيب: (بدر الدين الحسن بن عمر بن حبيب) ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م.

- درة الأسلاك في دولة الأتراك، تحقيق محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٤م.

الزبيدي: (محمد بن محمد بن عبدالرزاق المرتضى الحسيني) ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م.

- تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبدالفتاح الحلو، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٨٦م.

ابن شاهين الحنفي: (زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين) ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م.

- الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٤م.

الصيرفي: (الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي) ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م.

- إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م

ابن طولون: (شمس الدين محمد بن على بن طولون الدمشقي) ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م

- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م

ابن الفرات: (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات) ت ٨٠٧هـ /١٤٠٤م

- تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٩م

الفيروز آبادي: (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيرز آبادي الشيرازي) ت ٨١٧هـ/١٤١٤م.

- القاموس المحيط، ط٣، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٣٠١هـ

الفيومي: (أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقريء) ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق خضر الجواد، مكتبة لبنان، لبنان، ١٩٨٧م.

مجهول

- سيرة الظاهر بيبرس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦.

المقريزي: (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م
- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ج٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٣، مطعبة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- المقفي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

ابن منظور: (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي) ت ٧١١هـ / ١٣١١م.

- لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د. ت).

ثانيا : المراجع :

إبراهيم عبد العليم حنفي (دكتور)

- البنية الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٢م .

إبراهيم علي طرخان: (دكتور)

- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.

أحمد عبد السلام ناصف (دكتور)

- الشرطة فى مصر الإسلامية، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، ١٩٨٦.

أيمن فؤاد سيد (دكتور)

- التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٧م

سعاد ماهر محمد (دكتور)

- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١٢م

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م.

شلبي إبراهيم الجعيدي (دكتور)

- العامة في مصر في العصر الأيوبي ٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م ، ط٢ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠١١م

عاصم محمد رزق (دكتور)

- معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م
- خانقاوات الصوفية في العصرين الأيوبي والمملوكي (٥٦٧-٩٢٣هـ / ١١٧١ - ١٥١٧م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م .

عبد الحميد يونس (دكتور)

- الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، دار القلم–دار النهضة المصرية ، القاهرة ، (د.ت)

عبد الرحيم غالب (دكتور)

- موسوعة العمارة الإسلامية، دار جروس برس، بيروت، ١٩٨٨م .

عبد اللطيف حمزة (دكتور)

- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م .

علاء طه رزق (دكتور)

- عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠٣م

علي باشا مبارك:

- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠١م.

كمال الدين سامح (دكتور)

- العمارة الإسلامية في مصر، سلسلة الألف كتاب (٢٥٣)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت).

محاسن الوقاد (دكتور)

- الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين ١٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

محمد أمين، ليلي ابراهيم:

- المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، دار النشر بالجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٩٠م

محمد رجب النجار (دكتور)

- حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٤١م .

نجوى كمال كيرة (دكتور)

- حياة العامة في مصر في العصر الفاطمي "٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م" ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

ثالثا : المراجع المعربة :

أدم صبرة:

- الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، ترجمة قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة،٢٠٠٣م

رابعا : الدوريات والبحوث العربية:

سعود محمد العصفور(دكتور)

- الألفاظ الاصطلاحية المتداولة للصوفية في العصر المملوكي، بحث منشور مجلة التاريخ والمستقبل، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة المنيا، عدد يناير، ٢٠٠٧م.

فاروق خورشيد (دكتور)

- الملك الصالح أيوب ولي الله المجذوب ، بحث منشور بمجلة الفنون الشعبية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، العدد ٢٤ ، يوليو – أغسطس –سبتمبر ١٩٨٨م .

محمد فوزى رحيل (دكتور)

- بين التاريخ والفلكلور صلاح الدين الأيوبى فى السيرة الظاهرية، بحث منشور فى مجلة مركز الخدمة للإستشارات البحثية، كلية الآداب جامعة المنوفية، الإصدار رقم ٤٠، ابريل ٢٠١٠.

محمود عباد الجبوري، مثني حاضر الجبوري:

- التصوف الإسلامي في كتاب درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة لتقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥/١٤٤١م) خلال القرنين الثامن والتاسع للهجرة، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة تكريت، العدد ١٩، ٢٠١٤م .

خامسا : الرسائل الجامعية :-

أحمد عبد الرازق عبد العزيز :

- الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين-الثاني عشر والثالث عشر الميلادين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ٢٠١١م .

أحمد عبد السلام ناصف:

- دور الصوفية فى صد الهجمة الصليبية على ديار الإسلام فى مصر والشام (٤٩٠- ٧٩٨هـ / ١٠٩٦ – ١٣٩٨م) رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ١٩٨٩.

دولت عبد الكريم:

- الخوانق في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م

رشا فؤاد محمد حسن النمكي :

- الزعر والحرافيش في مصر في العصر المملوكي، رسالة ما جستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة طنطا.

طارق محمد المرسي:

- الزوايا في العصر المملوكي بالقاهرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م

محمد رجب النجار :

- البطل في الملاحم الشعبية العربية ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦م .

سادسا : المعاجم ودوائر المعارف:

- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨٩ م.

سابعا : المراجع الأجنبية:

Ahmad Abd ar-Raziq:

- La Femme au temps des Mamelouks, Le Caire, 1973

الهوامش

(١) حسب قول أحد الباحثين أن المؤرخين قد ترددوا طويلاً قبل اعتماد الموروث الشعبى مصدراً من مصادر البحث الأكاديمى فى مجال الدراسات التاريخية، حيث نظروا إلى الموروث الشعبى من السير والملاحم على أنها مجرد ضرب من الأساطير تتناسب مع بساطة فكر العامة ومن ثم لايركن إليها فى البحث التاريخى الجاد، غير أن العديد من التطورات التى بلورت الإهتمام بالتاريخ الإجتماعى قد أدت إلى ظهور اتجاه جديد فى مجال الكتابة التاريخية عده البعض ثورة تاريخية تجلت فى الربع الأخير من القرن العشرين وأهم مبادىء هذه الثورة أن التاريخ ليس مرادفاً لسير الحكام وحروبهم لكنه مرادف لمسيرة البشر الحضارية...، والسير الشعبية لا تهتم برصد الأحداث والوقائع كما حدثت بالفعل، أو كما دونها المؤرخون بقدر ما تعبر عن رأى العامة من الناس فى هذه الأحداث، فالراوى الشعبى لا يهمه سوى تلبية الحاجات الاجتماعية والثقافية للمتلقين من عامة الشعب خصوصاً أن رؤية عامة الشعب للأحداث التاريخية تجاوز حدود الزمان والمكان وتفاصيل الحوادث، ولا تلقى بالاً إلا لصورة كلية للأحداث مليئة بالكثير من الرموز الاجتماعية والثقافية تعبر بصدق عن موقف الجماعة حيال هذه الأحداث .

انظر : محمد فوزى رحيل: بين التاريخ والفلكلور صلاح الدين الأيوبى فى السيرة الظاهرية، مجلة الخدمة للإستشارات البحثية، كلية الآداب جامعة المنوفية، الإصدار رقم ٤٠، ابريل٢٠١٠، ص٢٧٢ والتى تليها، أما عن أبرز الباحثين الذين تناولوا قضايا التاريخ من خلال التراث الشعبى يأتى على رأسهم قاسم عبد قاسم، ويليهم الأمين أبو سعده فى دراسته عن صورة بيزنطة فى سيرة الأميرة ذات الهمة ، ومحمد فوزى رحيل فى دراسته عن صلاح الدين الأيوبى فى السيرة الظاهرية، وعمرو عبد العزيز منير فى معظم دراساته التى انصبت على دراسة جدلية العلاقة بين التاريخ والفلكلور.

(٢)الأحداث : مفردها حدث ، وهم الفتيان صغيري السن قليلي الخبرة بأمور الحرب والسياسة . ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر، بيروت، (د. ت) ، ج٢ ، ص١٣١-١٣٤ ؛ الفيومي : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تحقيق خضر الجواد، مكتبة لبنان، لبنان، ١٩٨٧م، ص٤٨ ؛ الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، ط٣، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٣٠١هـ ، ج١ ، ص١٦٢ ؛ الجوهري : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م ، ج١ ، ص٢٧٨ ، ٢٧٩ ؛ الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبدالفتاح الحلو، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٨٦م ، ج٥ ، ص٢٠٥-٢١٢ ؛ محمود إسماعيل: المهمشون في التاريخ الإسلامي ، دار رؤية ، القاهرة، ص١١٤ .

(٣)الفتيان : اسم يطلق على الصبي وحديث السن والشاب والخادم والصاحب ويطلق على الذكر والانثي ، فيقال رجل فتي وأنثى فتاه . ابن منظور : لسان العرب ، ج١٥ ، ص١٤٥-١٤٧؛ الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج٤ ، ص٣٦٥ ؛ الجوهري : الصحاح تاج اللغة ، ج٦ ، ص٢٤٥١ ، ٢٤٥٢ ؛ محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٤١م ، ص١٧٨ .

(٤)حرافيش : مفردها حرفوش ، وهو ذميم الخَلق والخُلق وهو المقاتل والمصارع واللص . ابن منظور : لسان العرب ، ج٦ ، ص٢٨٢ ؛ الفيومي : المصباح المنير ، ص٥٠ ؛ البقاعي : إظهار العصر لأسرار أهل العصر المعروف بتاريخ البقاعي، تحقيق محمد سالم بن شديد العوافي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ١٩٩٣م ، ج١ ، ص٣٢٤ ، هامش٢ ؛ الجوهري : الصحاح تاج اللغة ، ج٣ ، ص١٠٠١ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص٩ ، هامش ١ ؛ أحمد عبد الرازق عبد العزيز : الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين-الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ،

٢٠١١م ، ص٩٧ ؛ رشا فؤاد محمد حسن النمكي : الزعر والحرافيش في مصر في العصر المملوكي، رسالة ما جستير غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة طنطا ، ص٢١-٢٣ .

(٥)الزعار : لغويًا يقال زعر ريشه أو شعره : قل وتفرق فانكشف الجلد وبان وزعر الرجل قل خيره . والزعرة : طائر لا يُرى إلا قلقًا . ولا يستقر به مكان ، والأزعر وجمعه زعر وزعران : اللص الخاطف المارد . والزعارة : شراسة الخلق ورجل زعرور سيء الخلق ورجل زعير : قليل المال وأهل الزعار : العيارون الذين يترددون بلا عمل ، ويخلون النفس وهواها . ابن منظور : لسان العرب ، ج٤ ، ص٢٨٦ ، ٣٢٣ ؛ الفيومي : المصباح المنير ، ص٩٦ ؛ الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج٢ ، ص٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ؛ البقاعي : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٢٤ ، هامش١ ؛ الجوهري : الصحاح تاج اللغة ، ج٢ ، ص٦٥٨ ، ٦٦٣ ، ٦٧٠ ؛ الزبيدي : تاج العروس ، ج١١ ، ص٢٠١ ، ٢٧٠ -٢٧٣ ؛ المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨٩ م ، ص٢٨٨ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص٨ ، هامش ١ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص١٥ ، ١٦ .

(٦)العياق : لغويًا عاق يسوق عن كذا : صرف وثبط وآخر عنه ، وعاق فلانًا : صرفه عما أراد وحبسه عنه والعائق الذي يعوق الناس عن عمل الخير ورجل عوق (الجمع أعواق) : الرجل الذي لا خير عنده . ورجل عائق هو المانع الذي يعوق الطريق ويقطعه على الناس . ابن منظور : لسان العرب ، ج١٠ ، ص٢٨٠ ؛ الفيومي : المصباح المنير ، ص١٦٦ ؛ الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج٣ ، ص٢٦٢ ؛ الجوهري : الصحاح تاج اللغة ، ج٤ ، ص١٥٣٤ ؛ إبراهيم عبد العليم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٣٦ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص٨ ، ٩ ، هامش ١ .

(٧)الشطار : مفردها الشاطر ، لغويًا من أعيا أهله خبثًا ، ويقال شطر على أهله ، بمعنى نزح عنهم ، وترك موافقتهم وأعياهم خبثًا ولؤمًا ، والشطارة : هي الانفصال والابتعاد ، والشاطر هو الذي عصا أباه أو ولي أمره وعاش في الخلاعة . وشطر فلان شطارة : اتصف بالدهاء والخباثة : المفرد شاطر ، والجمع شطار وهو المتصف بالدهاء والخبث والحيلة والذكاء . واللص الشاطر الذكر الذي يستخدم الحيلة في موضع الحيلة ويستخدم القوة في موضع القوة . ابن منظور : لسان العرب ، ج٤ ، ص٤٠٦-٤٠٩ ؛ الفيومي : المصباح المنير ، ص١١٩ ؛ الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج٢ ، ص٥٧ ، ٥٨ ؛ الجوهري : الصحاح تاج اللغة ، ج٢ ، ص٦٩٧ ، ٦٩٨ ؛ الزبيدي : تاج العروس ، ج١٢ ، ص١٧١ ؛ المعجم الوجيز ، ص٣٤٣ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٧ ، ٨ ، هامش ١ .

(٨)العيارون : لغويًا كثير التجول والطواف ، الذي يتردد بلا عمل ، يخلي نفسه وهواها ، والمعار بالكسر الفرس الذي يجيد عن الطريق راكبه . والعيار : الكثير الذهاب والمجيء ، وهو الذكي كثير التطواف . يقال : عار الفرس يعير ذهب كأنه منفلت ، يهيم على وجهه لا يثنيه شيء ، فهو عائر متردد جوال . ابن منظور : لسان العرب ، ج٤ ، ص٦٢٠-٦٢٥ ؛ الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج٢ ، ص٩٧ ؛ الجوهري : الصحاح تاج اللغة ، ج٢ ، ص٧٦٣ ، ٧٦٤ ؛ الزبيدي : تاج العروس ، ج١٣ ، ص١٧٢-١٨٦ ؛ المعجم الوجيز ، ص٤٤٢ ، ٤٤٣ ؛ إبراهيم عبد العليم حنفي : البنية الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٢م ، ص١٣٦ ؛ محاسن الوقاد : الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين ١٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م ، ص١٦٢ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص٨ ، هامش ١ .

(٩) مناسر : مفردها منسر ، هم عصابة من اللصوص يصل عدد المنسر الواحد إلى مائة شخص .

رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص٢٥ ، هامش٧ .

(١٠)ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك، تحقيق محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٤م، ج١ ، ص٤٥٤ ؛ بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية في الدولة التركية تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨-٧١١هـ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٥٧ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٩م، مج٩ ، ج١ ، ص٨٩ ؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م ، ج٣ ، ق٢ ، ص٦٢٠ ، ج٣ ، ق٣ ، ص١٠١٩ ، ج٤ ، ق١ ، ص١٤٨ ، ٢٢٤ ، ج٤ ، ق٣ ، ص١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ؛ درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م ، ج١ ، ص٤٨٠ ؛ المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م ، ج٢ ، ص٤٥٨ ؛ ابن الصيرفي : إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م ، ص٤٩٨ ؛ ابن شاهين الحنفي : الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٤م ، ج٣ ، ص١٤٩ ، ٢٩٢ ، ٣٨٧ ؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ق١ ، ص١٢، ٢٢٦ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٨م، ج١ ، ق٢ ، ص٥٨٧ ؛ شلبي إبراهيم الجعيدي : العامة في مصر في العصر الأيوبي ٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م ، ط٢ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠١١م ، ص١٥ ؛ نجوى كمال كيرة : حياة العامة في مصر في العصر الفاطمي "٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م" ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ٢٠٠٤م ، ص١٧ ؛ محاسن الوقاد : الطبقات الشعبية ، ص١٦٣ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص١٧٩ ؛ آدم صبرة : الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، ترجمة قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة،٢٠٠٣م ، ص٣٤ .

(١١)علاء طه رزق: عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك ،عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، ص٤٩ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص١.

(١٢) محمود إسماعيل : المهمشون في التاريخ الإسلامي ، ص١١٥ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص٢٩ .

(١٣) محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص١٨١.

(١٤) محمود إسماعيل : المهمشون في التاريخ الإسلامي ، ص١٢٦ ، ١٢٧ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص٢٩ .

(١٥) علاء طه :عامة القاهرة ، ص٥١ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص٣١ .

(١٦) محاسن الوقاد : الطبقات الشعبية ، ص١٦٣ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص٣٤ .

(١٧) الخوانق : مفردها الخانقاة لفظة فارسية تتكون من كلمتين خان وقاه أى بيت الأكل أو المكان الذى يأكل فيه الملك، وصارت تعنى دار الصوفية وبيتهم الذي ينقطعون فيه للعبادة والتزهد، ويَتَلَقَّون فيه علومًا أغلبها دينية ، وهو من الخنق لتضييقهم على أنفسهم ، وقد كَوَّنت كل خانقاه وحدة قائمة بذاتها بداخلها عدد معين من الخلوات كل منها لأحد الصوفية . المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م ، ج٣، ص٥٦٧؛ إبراهيم علي

طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٤٨١؛ أيمن فؤاد سيد: التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٥٢ ، ٥٣ ؛ سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١٢م، ج٣، ص٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م ، ص١٨٦، ١٩٠ ؛ عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٩٣؛ عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، دار جروس برس، بيروت، ١٩٨٨م ، ص١٥٧؛ علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠١م.، ج٦، ص١٣٨؛ كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، سلسلة الألف كتاب (٢٥٣)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص٢٠؛ محمد أمين، ليلي إبراهيم: المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، دار النشر بالجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٣٩؛ سعود محمد العصفور: الألفاظ الاصطلاحية المتداولة للصوفية في العصر المملوكي، بحث منشور مجلة التاريخ والمستقبل، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة المنيا، عدد يناير، ٢٠٠٧م، ص٣٠٨؛ محمود عباد الجبوري، مثني حاضر الجبوري: التصوف الإسلامي في كتاب درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة لتقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥/١٤٤١م) خلال القرنين الثامن والتاسع للهجرة، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة تكريت، العدد ١٩، ٢٠١٤م، ص١٢٨؛ أحمد عبد السلام ناصف: دور الصوفية فى صد الهجمة الصليبية على ديار الإسلام فى مصر والشام، رسالة دكتوراة غير منشورة ، آداب طنطا، ١٩٨٩، ص٦٦.

(١٨) الزوايا : مفردها الزاوية هي: بناء صغير مخصص للصلوات الخمس، ما عدا الجمعة والأعياد وبدون مئذنة في الغالب، وهي إمَّا أن تكون قائمة بذاتها أو ملحقة على منشأة دينية أو مدنية . عاصم رزق: معجم مصطلحات العمارة، ص١٢٨؛ عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص٢١١؛ محمد أمين، ليلي إبراهيم: المصطلحات المعمارية، ص٥٩؛ طارق محمد المرسي: الزوايا في العصر المملوكي بالقاهرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٨؛ أحمد ناصف: دور الصوفية، ص٦٦.

(١٩)الأربطة : مفردها رباط هو في الأصل البناء المحصن الذي يقام قرب الحدود ويرابط به جماعة من المجاهدين لمهاجمة الأعداء، وأكْثَرَ المسلمون من إقامة الرُّبُط على أطراف دولتهم، وكان أهل الرباط يجمعون بين الجهاد والحياة الدينية، حتى ضعف خطر المسيحية على الإسلام في المشرق، ومنذ ذلك الوقت أخذ الرباط يفقد طابعه الحربي وتغلبت عليه الصفة الدينية، ولم يلبث انتشار التصوف فتحول الرباط إلى دور الصوفية، وبالتالي أصبح الربط يطلق على المكان الذي ينزل به الصوفية .المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٦٠٠، ٦٠١؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٨٦، ١٨٧؛ عاصم محمد رزق: خانقاوات الصوفية في العصرين الأيوبي والمملوكي (٥٦٧-٩٢٣هـ / ١١٧١ -١٥١٧م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م ، ج١، ص ٩٨، ٩٩؛ عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص١٩٥، ١٩٦؛ عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م، ص١٠٤، ١٠٥؛ كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، ص٢٠؛ محمود عباد الجبوري، مثني حاضر الجبوري: التصوف الإسلامي، ص١٢٨؛ دولت عبد الكريم: الخوانق في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م، ص٢٦؛أحمد ناصف: دور الصوفية، ص٦٦.

Ahmad Abd ar-Raziq: La Femme au temps des Mamelouks, Le Caire, 1973 , p73.

(٢٠) محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص١٨١ ، ١٨٢ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص٣٥ .

(٢١) محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص١٨٩ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص٧٢ .

(٢٢)محاسن الوقاد : الطبقات الشعبية ، ص١٦٣ ؛ محمود إسماعيل: المهمشون في التاريخ الإسلامي ، ص١٢٤ ، ١٢٥ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص٩٩.

(٢٣) علاء طه : عامة القاهرة ، ص٧٥؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص٩٩.

(٢٤) المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق جمال الدين الشيال ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص٤١ ؛ رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص١٠٠ .

(٢٥)المكوس: مفردها مكس وهي كلمة قديمة مشتقة من اللفظ السرياني ماكسو makso وهي تفيد معنيين، الأول: عندما أطلقت على الضرائب التي تجبى على التجارة والصناعة، وهذه الكلمة كانت معروفة للعرب منذ القدم، فكانت تطلق على الدراهم التي تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق، والمعنى الثاني: تطلق فيه الكلمة على الجهة التي تجبى فيها المكوس، ومن أمثلة ذلك الموضع الذي عرف باسم المكس أو المقس وكانت في الأصل قرية أم دنين وموضعها الآن حديقة الأزبكية حيث كانت مقر صاحب المكس، وقد أطلق على المكوس تسميات مختلفة، فعرفت باسم الهلالى، لأنها كانت تؤدى وفق الشهور الهلالية، كما عرفت أيضًا باسم المرافق والمعادن، إلى أن عرفت في العصر الفاطمى بكلمة مكس وجمعها مكوس، وكان فقهاء المسلمين لا ينظرون بعين الرضا إلى هذه الضرائب، لأنها في نظرهم تتنافى مع الشرع. المقريزي: الخطط المقريزية،ج١، ص٢٩٧، ٢٩٨، ج٢، ص٦٤٦، ٦٤٧؛ إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية، ص٥٠٥ ـ٥٠٩.

(٢٦) رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص١٠١ .

(٢٧) رشا فؤاد : الزعر والحرافيش ، ص١٠٥ .

(٢٨) محاسن الوقاد : الطبقات الشعبية ، ص١٦٣ .

(٢٩) محمد رجب النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦م ، ج١ ، ص٣٠٨ .

(٣٠) محمد النجار : حكايات الشطار والعيار ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٣١) عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، دار القلم-دار النهضة المصرية ، القاهرة ، (د.ت) ، ص١١٦ ، ١١٧ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣١٠ .

(٣٢) محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥١٨ .

(٣٣) محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣٠٩ .

(٣٤) عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٤ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣١٦ .

(٣٥) منهم كما ذكرت السيرة ، عقيرب ، زعيرب ، شعلان ، مهران ، مدكور ، أبو الجلب ، وأبو العدب .مجهول: سيرة الظاهر بيبرس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦ ، مج١ ، ص٣٠٩ .

(٣٦) السيرة ، مج١ ، ص٣٠٩ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٥ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٠ .

([٣٧]) السيرة ، مج١ ، ص٣٦١ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٠ .

([٣٨]) السيرة ، مج١ ، ص٣٤٤ ، ٣٧١ ، ٤٨٢ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٠ .

([٣٩]) السيرة ، مج١ ، ص٣٦٦ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٠ .

([٤٠]) السيرة ، مج١ ، ص٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٤٦ ، ٣٦٦ ، ٤٨١ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٥ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٠ .

([٤١]) السيرة ، مج١ ، ص٣١٠ ، ٣١٢ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٠ .

([٤٢]) السيرة ، مج١ ، ص٣١٠ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٦ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٠ .

([٤٣]) السيرة ، مج٢ ، ص٨٣٤ .

([٤٤]) السيرة ، مج١ ، ص٢٢٣ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٥ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢١ .

([٤٥]) السيرة ، مج١ ، ص٣٢١ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٥ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢١ .

([٤٦]) إحدى درجات الصوفية، فكان هناك صوفية علماء، وصوفية فقهاء، وصوفية شعراء، وصوفية قادة، ثم دراويش. انظر: أحمد ناصف: دور الصوفية، ص ٤٢.

(٤٧) السيرة ، مج١ ، ص٣٧٩ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٤ .

([٤٨]) عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٨ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٤ .

([٤٩]) إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٠ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣٠٤ .

([٥٠]) السيرة ، مج١ ، ص٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٣١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤١ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٤ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيار ، ص ٣٠٧ .

([٥١]) السيرة ، مج١ ، ص٢٩٨ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٠ ، ١٤١ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٤ ، ٧٥ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيار ، ص ٣٠٧ .

([٥٢]) السيرة ، مج٢ ، ص٩٣١ .

([٥٣])السيرة ، مج١ ، ص٣٠٣ ، ٣٤٧ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٠ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢١ .

([٥٤]) عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٥ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٠ .

([٥٥]) السيرة ، مج١ ، ص٣٠٤ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٠

([٥٦]) السيرة ، مج١ ، ص٢٢٣ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢١

(٥٧) السيرة ، مج١ ، ص٣٧٩ .
(٥٨) السيرة ، مج١ ، ص٥٢٣ .
(٥٩) السيرة ، مج٢ ، ص٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٤ .
(٦٠) محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٢ .
(٦١) السيرة ، مج١ ، ص٣٤٤ .
(٦٢) السيرة ، مج١ ، ص٣٩٤ .
(٦٣) إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٠ ، ١٤١؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣٠٤ .
(٦٤) السيرة ، مج١ ، ص٣٠٦ .
(٦٥) السيرة ، مج١ ، ص٣١٤ ، ٣١٥؛ إبراهيم حنفي: البنية الأسطورية، ص١٤٣.
(٦٦) السيرة ، مج١ ، ص٣١٦ .
(٦٧) إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٣ .
(٦٨) السيرة ، مج١ ، ص٣٢١-٣٢٣ ، ٦١٦ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٠ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيار ، ص ٣٠٩ ؛ البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣١٦ ، ٥٢٢ .
(٦٩) السيرة ، مج١ ، ص٣٢١-٣٢٣ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيار ، ص ٣٠٩ ؛ البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣١٦ ، ٥٢٢ .
(٧٠) السيرة ، مج١ ، ص٣٢٧ .
(٧١) السيرة ، مج١ ، ص٦٣٠ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٠ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيار ، ص ٣٠٤ ؛ البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣١٠ .
(٧٢) السيرة ، مج١ ، ص٣٤٤ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيار ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .
(٧٣) السيرة ، مج١ ، ص٣٤٩ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٢
(٧٤) للمزيد انظر. فاروق خورشيد : الملك الصالح أيوب ولي الله المجذوب ، بحث منشور بمجلة الفنون الشعبية ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، العدد ٢٤ ، يوليو – أغسطس –سبتمبر ١٩٨٨م ، ص٣٢-٣٩ .
(٧٥) محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٢ .
(٧٦) السيرة ، مج١ ، ص٤٢٥-٤٢٧ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤١ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٣ .
(٧٧) السيرة ، مج١ ، ص٣٦٩ ، ٣٧٩ ، ٤٤٣ ، ٤٦٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥
(٧٨) السيرة ، مج١ ، ص ٤٤٣ ، ٤٦١ .
(٧٩) السيرة ، مج١ ، ص٣٢٤ .
(٨٠) السيرة ، مج١ ، ص٣٢٧ ، ٣٢٩ .
(٨١) السيرة ، مج١ ، ص٣٢٩ .
(٨٢) السيرة ، مج١ ، ص٣٢٩ ، ٣٣٠ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٤ .
(٨٣) السيرة ، مج١ ، ص٣٤٠ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٥ .
(٨٤) إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٥ .
(٨٥) السيرة ، مج١ ، ص٣٩٠ -٣٩٢ .
(٨٦) السيرة ، مج١ ، ص٣٩١ .

([٨٧]) السيرة ، مج١ ، ص٤٠٦-٤١١ .
([٨٨])عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٦ ، ٧٧ .
([٨٩]) السيرة ، مج١ ، ص١٠٣ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٠ .
([٩٠]) محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣١٦ ، ٣١٧ .
([٩١]) السيرة ، مج١ ، ص٣٤٠-٣٤٣ .
([٩٢]) السيرة ، مج١ ، ص٣٥٧-٣٦٣ .
([٩٣]) السيرة ، مج١ ، ص٣٦٣-٣٧٦ .
([٩٤]) السيرة ، مج١ ، ص٥٤٠ ، ٥٤١ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .
([٩٥]) السيرة ، مج١ ، ص٤٣٧-٤٤٠ ، ٤٦٥ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١١ .
([٩٦]) السيرة ، مج١ ، ص٣٤٥ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١١ .
([٩٧]) السيرة ، مج١ ، ص٧٢٦ ، ٧٢٧ .
([٩٨]) السيرة ، مج١ ، ص٧١٤ .
([٩٩]) السيرة ، مج١ ، ص٤١٠ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ،ص٧٧ .
([١٠٠]) السيرة ، مج١ ، ص٣٥٢ -٣٥٤ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٧ .
([١٠١]) السيرة ، مج١ ، ص٣٥٥.
([١٠٢]) السيرة ، مج١ ، ص٣٥٥.
([١٠٣]) السيرة ، مج١ ، ص٤٥٩ ، ٤٦٠ .
([١٠٤]) السيرة ، مج١ ، ص٥٣٠-٥٤٠ .
([١٠٥]) عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي، ص٨٨ .
([١٠٦]) محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣١٨ .
([١٠٧]) السيرة ، مج ١ ، ص٥٠٦ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١١ .
([١٠٨]) السيرة ، مج١ ، ص٥٠٧ -٥١٠ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٢ ؛ البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣١٩ .
([١٠٩]) السيرة ، مج١ ، ص٥٢٥ .
([١١٠])السيرة ، مج١ ، ص٥١١ ، ٥٢٢-٥٣٣ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٢ .
([١١١])السيرة ، مج١ ، ص٤٦٦ ، ٤٦٧ ، مج٢ ، ص٩٢٨-٩٣١ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٤ .
([١١٢]) السيرة ، مج٢ ، ص٨٠٠ ، ٩٢٧
([١١٣]) السيرة ، مج٢ ، ص٨٠٠ ، ٨٠٣ ، ٨٠٧ .
([١١٤]) السيرة ، مج١ ، ص٥١٢ ، ٥١٣ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٢ .
([١١٥])السيرة ، مج١ ، ص٥١٣ ، ٥١٤ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٣ .
([١١٦]) السيرة ، مج١ ، ص٥١٣ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٣ .
([١١٧]) السيرة ، مج١ ، ص٦٠٤-٦١٥ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٣ .
([١١٨]) السيرة ، مج ١ ، ص٥١٥-٥٢٢ .

([119]) السيرة ، مج١ ، ص٥٣١-٥٤١ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٧ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ .
([120]) السيرة ، مج١ ، ص٦١٨-٦٢٤ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٤ .
([121]) السيرة ، مج١ ، ص٥٤٥- ٥٥٠ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣٢١ .
([122]) السيرة ، مج١ ، ص٦٢٧-٦٢٩ .
([123]) السيرة ، مج١ ، ص٦٣٦-٦٤٨ .
([124]) السيرة ، مج٢ ، ص٧٨٢ .
([125]) السيرة ، مج٢ ، ص٩٦٨-٩٧٠ .
([126]) السيرة ، مج١ ، ص٦١٦ ، ٦١٧ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٤ .
([127]) السيرة ، مج١ ، ص٦١٦ .
([128]) السيرة ، مج١ ، ص٥٥٦ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٤ .
([129]) السيرة ، مج١ ، ص٦٣٠ ، ٦٣٣ .
([130]) السيرة ، مج١ ، ص٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٤٨٩ ، ٥٠٨-٥١٣ ، ٥٣٥ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٤ .
([131]) السيرة ، مج١ ، ص٣٨١-٤٠٦ .
([132]) السيرة ، مج١ ، ص٤١٤ ، ٤١٥ .
([133]) السيرة ، مج١ ، ص٦٥٠-٦٥٤ ، ٦٨٦ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣٢٤ .
([134]) السيرة ، مج١ ، ص٦٨١ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣٢٤ .
([135]) السيرة ، مج١ ، ص٦٩٠-٦٩٥ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص ٣٢٥ .
([136]) السيرة ، مج١ ، ص٧١٤ .
([137]) السيرة ، مج١ ، ص٦٩٢-٦٩٨ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣٢٤ .
([138]) السيرة ، مج١ ، ص٦٩٦، ٦٩٧ .
([139]) السيرة ، مج٢، ص٢٥٥ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٥ .
([140]) السيرة ، مج٢ ، ص١٠١٨- ١٠٢٣؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٥ .
([141]) السيرة ، مج٢ ، ص١٠٢٤-١٠٣٣ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٥ .
([142]) السيرة ، مج٢ ، ص١٠١٩ -١٠٢٢ .
([143]) محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣٣٤ .
([144]) إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٠ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣٠٥ .
([145]) السيرة ، مج١ ، ص٥٤١ ، مج٢ ، ص٨٦٨ ، ٩٢٧ ، ١٠٤٢
([146]) السيرة ، مج١ ، ص٧٢٩ .
([147]) السيرة ، مج١ ، ص٥٤١ ، ٥٤٢ .
([148]) السيرة ، مج١ ،ص ٥٤٣، ٥٤٤ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ،

ص٥٢٣ .
([١٤٩]) السيرة ، مج١ ، ص٥٧٠ ، ٥٧١ .
([١٥٠]) السيرة ، مج٢ ، ص٩٦٥ .
([١٥١]) السيرة ، مج١ ، ص٦٦٨ ، ٧٤٨ ، ٧٥٣ ، مج٢ ، ص٧٨٩ ، ٨١٨ ، ٨٦٧ ، ٩٣١ .
([١٥٢]) السيرة ، مج١ ، ص٥٧٣ .
([١٥٣]) السيرة ، مج ١ ، ص٧٥٩ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٣ .
([١٥٤]) السيرة ، مج١ ، ص٥٧٢ -٥٧٧ ، ٥٨٧-٦٠٣ .
([١٥٥]) السيرة ، مج١ ، ص٣٢٦ ، ٣٣١ .
([١٥٦]) الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٤-٨٩ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٦ .
([١٥٧]) السيرة ، مج١ ، ص٢٥٧ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٧ .
([١٥٨]) السيرة ، مج١ ، ص٢٢٣-٢٣٨ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص٣١٧ ؛ البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٥ .
([١٥٩]) السيرة ، مج١ ، ص٦١٦ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٧ .
([١٦٠]) السيرة ، مج١ ، ص٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٧٩ ، ٤٢٤ ، ٤٤٣ .
([١٦١]) السيرة ، مج١ ، ص ٤٤٢ .
([١٦٢]) السيرة ، مج١ ، ص٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٧٩ ، ٤٢٤ ، ٤٤٣ .
([١٦٣]) السيرة ، مج١ ، ص٥٣٧ .
([١٦٤])السيرة ، مج١ ، ص٤٤٤ ،٤٩٤ -٤٩٨ ، ٦٧٤ ؛ عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٧ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٦ .
([١٦٥]) محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٦ .
[١٦٦]([١٦٦]) السيرة ، مج٥ ، ص٣٣٧ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٦ .
([١٦٧]) عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ، ص٧٨ ؛ محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٦ ، ٥٢٧ .
([١٦٨]) محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٥٢٧ .
([١٦٩]) محمد النجار : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، ج١ ، ص٣٣١ .
([١٧٠]) السيرة ، مج١ ، ص٢٧٤ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٣٨ ، ١٣٩ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣١٨ .
([١٧١])إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٣٧ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣٠٢ .
([١٧٢]) محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣٠٥ .